الولايات السياسية لغير المسلمين في الدولة الإسلامية وأثر ذلك عليها

د. أبو بكر عبد المقصود محمد كامل *

سلم البحث في ٢٠١٣/٤/٢١م اعتمد للنشر في ٢٠١٣/٥/١٩م

ملخص البحث:

تناول المراد بغير المسلمين، وبين معاملة المسلمين لهم وذكر شهادات عن غير المسلمين في بلاط الخلفاء، ثم ذكر أقسام الولايات السياسية في الدولة الإسلامية وحكم تمكين غير المسلمين من ولاية أمر المسلمين، وما يجوز من الاستخدام أو الاستعانة بهم، ث متناول الرد على شبهات ولاية غير المسلمين أمر المسلمين التي منها: وزارة التنفيذ ووزارة التفويض، وشرح عبارة: لهم ما للمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين وغيرها، ثم تناول البحث نماذج من وزراء وكتّاب وأطباء وشعراء يهود ونصارى في بلاط الخلفاء، وصور من خيانات غير المسلمين للخلفاء.

Abstract:

This research of the political authority (power) of non-Muslims in the Islamic state treats the influence of the non-Muslim's authority on the state and it defines the meaning of the term (non-muslims).How muslims treated the non-muslims and the witnesses of non muslims in the caliph court are clearly mentioned and discussed. The different kinds of political authorities in the Islamic state and the judgment of giving the authority for non–muslims over Muslims and in what way is allowed to use or employ non-muslims for that purpose , are already treated and discussed. Misconceptions of having authority of non-muslims over muslims like for example, ministry of implementation or ministry of mandate, and the right usage and meaning of the phrase (they (non-muslims) have the same rights and duties exactly like muslims,are clearly explained. Different types and examples of christian and jewish minister, writers, doctors, poet, literateand betrayals of non-muslims in caliph; court are discussed.□

---

* أستاذ العقيدة والأديان والمذاهب الفكرية المساعد بكلية الشريعة وأصول الدين- جامعة نجران.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فمنذ عقود مضت بل منذ القرون الأخيرة -التي ظهر فيها ضعف المسلمين، حيث ركنوا إلى الحياة الدنيا وابتعدوا عما أراده الله منهم- أُهملت بعض الأحكام الشرعية، وهُجر العمل بها؛ لكن على رغم ذلكم الضعف، وذلكم الإهمال، لم يكن هذا إلا في الجانب العملي التطبيقي، أما الجانب الفقهي النظري فقد ظلت تلك الأحكام محفوظة مدونة في كتب أهل العلم، تدرس بعض موضوعاتها للطلاب، ومن طلبها وجدها، أما اليوم وفي ظل حالة الضعف الشديدة التي تمر بها المجتمعات الإسلامية، وفي ظل ظهور الكفر وأهله وعلوهم في الأرض بالباطل، فإنه يراد لهذه الأحكام أن تُهجر فكريا ونظريا كما هجرت عمليا وتطبيقيا، ووجدنا من يؤلف ويكتب الكتب والمقالات داعيًا وناشرا لذلك بين الناس، فوجدنا من يقول عن أهل الذمة: مواطنون لا ذميون، ويجعل ذلك عنوانا لرفض الأحكام الشرعية المتعلقة بأهل الذمة، بعبارة مقبولة عند العامة، ويسوغ ذلك بأن تلك الأحكام كانت وقتية وواقعية مرتبطة بواقع الصراع بين المسلمين وأهل الكتاب عند بداية الدعوة -وهذا من تحريف الكلم- ووجدنا من يتبعه ممن يقول: إن المواطنة التي تمنحها الدولة لرعاياها حلت محل مفهوم أهل الذمة، وبدأت سلسلة التنازلات شيئا فشيئا، فبعد أن أعلنت بعض الجماعات الإسلامية أن لأهل الذمة أن يتولوا المناصب كلها في الدولة الإسلامية، من وزراء ومستشارين، باستثناء رئاسة الدولة، عادت تلك الجماعة بعد أكثر من عقد من الزمان لتقول: لا مانع من أن يكون على رأس الدولة الإسلامية التي تنشدها شخص قبطي، وهكذا تتوالى التنازلات، ابتغاء تحقيق حلم هو في عداد الأوهام، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:١٢٠)، فمن رام رضى اليهود والنصارى عليه وهو يخالفهم ولا يتبعهم فهو واهم، كما قال الطبري: "والعداوة على الدين، العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما"(١)؛ لكنهم إذا رضوا عنه فهذا يعني موافقته لهم، أو أنه يحقق

أهدافهم وطموحاتهم، وهو بذلك يكون قد أضر بدينه وأغضب الله عليه، وفي بحثي هذا سأتناول موضوع الولايات السياسية لغير المسلمين في الدولة الإسلامية، وتقريب الخلفاء والأمراء لهم وأثر ذلك في الدولة الإسلامية.

وقد جاء هذا البحث على النحو التالي:

المطلب الأول: المراد بغير المسلمين وأهل الذمة.

المطلب الثاني: معاملة المسلمين لأهل الذمة وشهادات عن أهل الذمة في بلاط الخلفاء.

المطلب الثالثً: الولايات السياسية في الدولة الإسلامية وتمكين أهل الذمة من ولاية أمر المسلمين.

المطلب الرابع: الرد على شبهات ولاية غير المسلمين أمر المسلمين.

المطلب الخامس: وزراء وكتّاب وأطباء وشعراء يهود ونصارى في بلاط الخلفاء.

المطلب السادس: صور من خيانات غير المسلمين للخلفاء.

المطلب الأول

المراد بغير المسلمين (أهل الذمة)

أهل الذمة وغير المسلمين وأهل الكتاب مصطلحات تتكرر كثيرا سأتناولها في بحثي هذا فمن هم أهل الذمة ؟، وهل هم أهل الكتاب أم غيرهم ؟.

تشير الموسوعة الفقهية إلى أن: "أهل الذمة هم الكفار الذين أبوا الدخول في دين الإسلام، لكنهم رغبوا في البقاء في دار الإسلام والتمتع بحماية المسلمين لهم في دينهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، سواء كانوا من أهل تلك البلاد المفتوحة"، أو قدموا من ديار الكفر راغبين في ذلك بناء على عقد يعقد بينهم وبين دولة المسلمين يعرف بعقد الذمة،حيث يرتب هذا العقد حقوقا وواجبات على الطرفين ينبغي الوفاء بها من كليهما[٢].

ويدخل في هؤلاء الذين يجوز أن يعقد لهم عقد الذمة: أهل الكتاب اليهود والنصارى، ويلحق بهم في ذلك المجوس عبدة النيران، وقد ثبتت النصوص بذلك وانعقد عليه الإجماع، أما من عداهم من عبدة الأوثان فقد اختلف أهل العلم بشأنهم: هل يجوز أن تعقد لهم الذمة أم ليس أمامهم إلا الإسلام أو الحرب ؟، وقد رجح

طائفة من أهل العلم دخول عبدة الأوثان فيمن يجوز أن تعقد لهم الذمة [٣]، وهو الذي يعضده الدليل على ما تبين في حديث بريدة t مرفوعا وفيه: "وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، إلى أن يقول: فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم"[٤]، فعلق الحكم بلفظ المشركين، وعمم ولم يستثن من ذلك مشركًا من المشركين.

والذمة: الأمان والعهد، فعقد الذمة أي عقد الأمان الذي تمنحه الدولة لأهل ذمتها، وتتعهد بمقتضاه بحمايتهم وتأمينهم، وبه أحكام تفصيلية كثيرة، لكن أظهر ما فيه وأجمعه هو: قبول الكفار بجريان أحكام المسلمين عليهم في الشأن العام، مع التزام دفع الجزية، التي هي مبلغ مالي مُقدر من قبل الدولة، يعبر عن قبولهم بعقد الذمة والتزامهم به وخضوعهم لأحكامه، وفي مقابل ذلك يأمن الذميون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، لا يُقرب شيء من ذلك إلا بالحق الذي بينه الله تعالى قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة:٢٩).

المطلب الثاني
معاملة المسلمين لأهل الذمة وشهادات عن أهل الذمة في بلاط الخلفاء

لقد أمر الله بحسن معاملة أهل الكتاب والإحسان إليهم، ولم ينهنا ربنا تبارك وتعالى عن البر والإقساط بمن لم يقاتلنا في الدين ولم يعينوا المشركين علينا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)، فبرهم والإقساط إليهم أمر مطلوب، لكن ليس من معنى هذا توليتهم الولايات على المسلمين، فإن هذا لم يقل به أحد، والآية إنما تعنى أن المسلمين أهل عدل وإنصاف وإحسان لا يظلمون أحدا شيئا، وأن من لم يقاتلهم في الدين ولم يعن عليهم أحدًا فإن المسلمين

يحفظون له ذلك ويثيبونه عليه.

ولقد أفادت معاملة المسلمين الحسنة لأهل الذمة في إقبال الكثير منهم على الإسلام عن يقين وإيمان تمكن بعض من تظاهر بالإسلام ومن بقي على دينه التسلل إلى المجتمع، وقد تقيد الخلفاء الراشدون والأمويون ومن بعدهم إجمالا بالقرآن والسنة وهما يحرِّمان ظلم الذمي وعدم التعدي عليه ما لم ينقض عهد مقابل دفع الجزية التي كان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، ولا يدفعها ذوي العاهات ومن لم يكن لهم يسار وسعة.

وفي آخر سنتين في حياة رسول الله e عقد عدَّة معاهدات مع النصارى؛ منها معاهدة رسول الله e مع نصارى نجران، وقد أرسلوا وفدًا إلى رسول الله e، مُكَوَّنًا من أربعة عشر رجلاً، وكان أمير الوفد رجلاً يُدْعَى العاقب، وكان هناك رجل آخر يتولَّى إدارة الرحلة، كانوا يلقِّبونه بالسيد، بينما كان هناك رجل ثالث مسئول عن الأمور الدينية، وهو أسقف الرحلة وحبرها، واسمه أبو الحارث، فكان هؤلاء الثلاثة على رأس الوفد، وهم الذين يتولَّوْن التفاوض.

ويذكر ابن هشام في "السيرة النبوية"(٥): (وقد جاء وفد نصارى نجران في هيئة منظَّمة، وفي صورة منمَّقة لدرجة المبالغة؛ حيث لبسوا الثياب الحريرية، وتحلَّوْا بالخواتم الذهبية، وكان من الواضح أن الوفد لم يكن في نيته أن يُسْلِمَ، وإنما أتى ليناظر رسول الله e من ناحية، وليبهره والمسلمين من ناحية أخرى؛ فعرض رسول الله e عليهم الإسلام؛ ولكنهم رفضوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم!. فقال رسول الله e لهم: "يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلاَمِ ثَلاَثٌ: عِبَادَتُكُمُ الصَّلِيبَ، وَأَكْلُكُم لَحْمَ الْخِنْزِيرِ، وَزَعْمُكُمْ أَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا"، فهذه أمور ثلاثة حرفتموها في الإنجيل، ولم تُسْلِموا فيها لله رب العالمين، ولا يستقيم أن تُطْلِقوا على أنفسكم: "مسلمين". قبل أن تتركوا هذا الاعتقاد الفاسد .

ويذكر الطبري في "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" بعضا من جوانب الجدال الذي دار بين الرسول e الكريم ووفد نجران، فيقول: وكثر الجدال بينهم

وبين رسول الله e، وكثر إلقاء الشبهات والردّ عليها، وكان مما قالوه: مالك تشتم صاحبنا -يقصدون عيسى- وتقول: إنه عبد الله ؟! فقال رسول الله e: أَجَلْ، إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءَ الْبَتُولِ".

ولم يكن هذا انتقاصًا أبدًا من نبي الله عيسى عليه السلام، بل العبودية لله تشريف، وهو رسول من أُولي العزم من الرسل، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم عليها السلام، والتي نُكَرِّمُهَا أيضًا ونُجِلُّهَا، وننفى عنها أي شبهة سوء، فنقول: إنها مريم العذراء البتول، ومن ثَمَّ دعاهم رسول الله e إلى المباهلة، ولكنهم رفضوا لعلمهم أنه نبي مرسل -كما أشرنا من قبل- فصالحَهم رسول الله e على الجزية، بعدما تحمَّل كِبْرَهم وإعراضهم؛ رغم أنهم الذين جاءوا للصلح، وأنهم ليسوا أهل قوة، ولو أراد الرسول e حربهم لأرسل إليهم جيشًا كبيرًا؛ ولكن رسول الله e أراد إرساء قواعد السلام بين المسلمين وغيرهم، القريب منها والبعيد، فكتب رسول الله e كتابًا لأهل نجران: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ لِلأُسْقُفِ أَبِي الْحَارِثِ، وَأَسَاقِفَةِ نَجْرَانَ، وَكَهَنَتِهِمْ، وَرُهْبَانِهِمْ، وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ جِوَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ، لا يُغَيَّرُ أُسقفٌ مِنْ أسقفته، وَلا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلا كَاهِنٌ مِنْ كَهَانَتِهِ، وَلا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَلا سُلْطَانُهُمْ، وَلا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، جِوَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ أَبَدًا مَا أَصْلَحُوا وَنَصَحُوا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُبْتَلَيْنَ بِظُلْمٍ وَلا ظَالِمِينَ"(٦).

وفي هذا العهد من التسامح والإنصاف ما فيه، كما طلب وفد نجران من رسول الله e أن يبعث معهم رجلاً أمينًا ليأخذ منهم الجزية، فقال رسول الله e: "لأبْعَثَنَّ معكم رجلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٌ". فاستشرف لهذه المكانة أصحاب الرسول e، فقال رسول الله e: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ". فلما قام، قال رسول الله e: هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ"، وقد أورد هذا الحديث البخاري في كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران. كما ذكره مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سيدنا أبي عبيدة بن الجراح. وفي ذلك دلالة على أن رسول الله e قد وضع المعاهدة موضع التنفيذ، وظلَّت العلاقات طيبة بين أهل نجران والمدينة المنورة حتى وفاة الرسول e.

ولقد تمتع النصارى في العقود الستة الأولى للفتح الإسلامي بالسلام والطمأنينة، ولم تتبدّل أوضاعهم كثيراً، سوى أنّ الضرائب المترتّبة عليهم أصبحت تدفع إلى العرب بدلاً من البيزنطيّين، وكانت لا تزال محتملة ولم تتزايد وتتضاعف إلاّ منذ الخليفة عبد الملك، ولم تظهر القيود المذلّة للذميّين إلاّ في عهد لاحق لمّا نشأت المذاهب الشرعيّة المتشدّدة، وإنّ نصوص المعاهدات التي تحدّ بعض الشيء من الحرّيات الدينيّة ومن بناء كنائس جديدة ليست كلّها أصيلة وقد وضعت في عهد بدأت فيه المضايقة على الذمّيين، وهناك آثار كنائس جديدة بنيت في القرن السابع.

وظلّت الدواوين على ما كانت عليه باللغة اليونانيّة، وكان رئيس الديوان لدى معاوية منصور بن سرجون الذي فاوض الجيوش العربية الإسلاميّة لتسليم دمشق، ثمّ ابنه سرجون والد يوحنّا الدمشقي، ويوحنّا نفسه. وكانت الدنانير البيزنطيّة لا تزال تتداول في بلاد الشام. وإنّ معاوية صكّ عملة جديدة عام٦٦٠م بدون الصليب فلم يقبلها الشعب واضطّر لسحبها.

وكان القائم على شؤون بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان أولا بصفته والياً عليها ثمّ بصفته خليفة بعد موت علي بن أبي طالب وجعل من دمشق مركز الخلافة ومن بلاد الشام قلب الدولة العربيّة.

وكانت القبائل المسيحيّة العربيّة أمثال تغلب وتنوخ وكلب لا تزال قويّة وإنّ جيوشها كانت أكبر دعم للأمويّين ضدّ معارضيهم الكثر. وكان الأخطل شاعر بني تغلب النصراني يدافع بشعره عن الأمويّين ويعارض الأنصار، وكان يدخل البلاط والصليب على صدره وكلمته مسموعة، كما كان سرجون بن منصور شبه وزير المالية يدير شؤون الدولة الأمويّة، وإن يزيد بن معاوية ربي لدى أخواله النصارى في البادية وكان من أهم ندمائه الأخطل ومنصور بن سرجون (يوحنّا الدمشقي).

تابع عبد الملك في أول عهده سياسة أسلافه، وهادن البيزنطيّين ليتسنى له التفرّغ لقمع ثورة عبد الله ابن الزبير في الحجاز، وكانت القبائل المسيحيّة العربيّة سند الدولة الأمويّة وساهمت في الانتصار الذي حقّقه الأمويّون في معركة مرج

راهط عام ٦٨٤، وكان والده مروان قد احتاط بشرطة خاصة لحمايته مؤلّفة من مائتي مسيحي عربي من منطقة إيلات العقبة، وكان الأخطل شاعر عبد الملك وسرجون بن منصور رئيس ديوان الماليّة، وعيّن أثناسيوس بن جومايا الرهاوي مساعداً لحاكم مصر. (٧)

ذلك أن معاوية t أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التي كان معمولاً بها في الشام ومصر والمغرب، كما أبقى على النظم الفارسية في العراق وخراسان(٨)، وكان ترك معاوية t هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين في أوائل العهد الأموي، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية t الخاص، ويدعى ابن أُثال، غير مسلم، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومي مستشاره المالي، وابن مينا، وابن النضير، مولاه من عماله على الصوافي، كانوا أيضاً من سلالة غير المسلمين وأسلم بعضهم فيما بعد، وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضاً حرية تامة هي ممارسة طقوسهم الدينية: فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا في مسجد دمشق، كما: رممّ لهم كنيسة الرَّها (أُديسًّا) والتي كانت قد تهدمت من جراء الزلازل، كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر ما بين عامي٤٧هـ، ٦٨هـ(٩)

وقد اعترف المسلمون لليهود بكيانهم الديني وبالإجزيلارك (رئيس الجالية اليهودية في المهجر) في كل من بابل وأرمينيا والتركستان وفارس واليمن فكان رئيس الجالية اليهودية في كل بلد هو الذي يدير شئونهم وفقا للعادات الخاصة بهم في الأمور المدنية والجنائية فيما لا يمس المسلمين(١٠).

وقد أبقى المسلمون للنصارى كنائسهم ورؤسائهم ومدارسهم وأزالوا عنهم الخوف والاضطهاد الذي وقع عليهم من بعضهم البعض لاختلاف مذاهبهم، فمارسوا عباداتهم بأمان واطمئنان وترك لهم تنظيم جماعاتهم داخليا وكان البطريرك المعين بالانتخاب يقوم بإدارة شئونهم المدنية، ولم يثبت أن أحد الولاة

المسلمين تدخل في تعيين أو انتخاب أحد البطاركة إلا إذا طلب النصارى منه ذلك، فكان أهل الكتاب على ذلك هيئات شبه مستقلة داخل كيان الدولة الإسلامية[١١].

بناء الكنائس وتجديدها: لقد سمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة والاحتفال بأعيادهم فبنيت عدة كنائس بمساعدة أولي الأمر أحياناً ككنيسة مارمرقص بالإسكندرية بين عامي ٣٩-٥٦ وعمرت كنيسة ابن مقار، كما بنيت كنيسة الفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد على مصر.

ولما أنشأ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان سمح بناء كنيسة فيها وقفت على القديس يوحنا مع أن هذه المدينة أسسها المسلمون، كما سمح عبد العزيز لكاتبه النصراني أثناسيوس ببناء كنيسة مارجرجس وكنيسة أبو قير في قصر الشمع وبنيت كنيسة يعقوبية بإذن الوليد سنة ٩٢هـ وازدهرت كنيسة الإسكندرية وازدادت أهميتها زمن البطرك ثيودور ٩٠-١٢٠هـ حتى عادت إلى عادتها وسيرتها الأولى إن لم تزد عليه قبل الفتح الإسلامي.

وفي الشام حافظ المسلمون على كنائس النصارى وأموالهم وأنفسهم، فرمّم معاوية كنيسة الرها الكبرى سنة ٦٠هـ بعد أن دمرها الزلزال، وزاد استخدامهم في الدواوين فكان لهم أثر كبير في الإدارة، وبنى إثناسيوس الثري النصراني كنيسة أخرى في الرها زمن عبد الملك بن مروان[١٢].

أهل الذمة في بلاط الخلفاء:

لقد شارك النصارى في العصر العباسي في نواحي الحياة المختلفة؛ الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والعلمية، وفي المهن بصفة عامّة ودونما تمييز، ودخلوا وظائف الدولة، وقد برزت كفايات أدبية في سلك الكُتّاب وعُمّال الخَرَاجِ، واستُقبِلُوا بالاحترام في بلاط الخلفاء، كما اعتُرِفَ لهم بقانونهم الديني، ورؤسائهم الروحيين، بل إن المجوس كانت لهم مكانة محترمة، وكان لهم كاليهود والنصارى، رئيسٌ يمثلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة.

وقد صدر منشور في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كُتِبَ

للصابئين عن أمير المؤمنين، أمر فيه إلى جانب صيانتهم، وحراستهم، والذّبِّ عن حريمهم، ورفع الظلم عنهم، ونحو ذلك، بالتخلية بينهم وبين مواريثهم، وترك مُداخَلَتهم، ومشاركَتهم فيها.

وقد أصدر الخليفة العباسي المقتدر في سنة (٣١١هـ/ ٩٢٣م) كتابًا في المواريث أمر فيه بأن "تُرَدَّ تَرِكَة مَنْ مات من أهل الذمة ولم يُخَلِّف وارثًا على أهل مِلّتِه"، على حين أن تركة المسلم الذي لم يترك وارثًا كانت تُرَدُّ إلى بيت المال.

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يُغلق دون النصارى أي باب من أبواب الأعمال، وكانت أقدامهم راسخةً في الصنائع التي تُدِرُّ الأرباح الوافرة؛ فكانوا صيارفة وتجارًا، وأصحاب ضِيَاعٍ وأطباء، بل إنَّ النصارى نظّموا أنفسهم بحيث كان أكثر الأطباء والكَتَبَة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة.

وفي سنة (٢٠٠هـ) أراد الخليفة المأمون أن يُصدر كتابًا لأهل الذمة؛ يضمن لهم حرية الاعتقاد، وحرية تدبير كنائسهم؛ بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم، ولو كانوا عشرة أنفس، أن يختاروا بطْرِيقهم، ويعترف له بذلك، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا شغبًا، فعدل المأمون عن إصدار الكتاب(١٣)

وبقيام الدول شبه المستقلة في مصر لم يتغير الوضع كثيرًا؛ فلم تتغير السياسة في مصر تجاه النصارى، ونستطيع أن نَلمَس حرص أمراء الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ) على معاملة النصارى معاملة طيبة، بل ظلُّوا يعملون في الدواوين، وبأعمال الخراج، بل وشاركوا في أعمال الشرطة؛ للمحافظة على الأمن والنظام في البلاد،وكان لابن طولون كاتبان نصرانيان؛ هما يوحنا وإبراهيم بن موسى، كما كان لوزير ابن طولون أحمد بن الماذراني كاتب نصراني يُسمَّى يوحنا، كذلك استعان الأمير ابن طولون بكثير من المهندسين النصارى في مشاريعه المعمارية؛ ومن هؤلاء سعيد بن كاتب الفرغاني، الذي بَنَى لابن طولون عين ماءٍ، كما شارك في بناء مسجد ابن طولون نفسه(١٤).

وقد سار الأمير خمارويه على نهج أبيه أحمد بن طولون في استخدام

النصارى، فكان له كاتب نصراني يُدعى إسحاق بن نصر العبادي، فضلاً عن اعتماد خمارويه على أسقف (طما)، ويُدعى أنبا بخوم، الذي كان يمتلك عددًا كبيرًا من الغلمان؛ ومن ثَمَّ اعتمد عليه خمارويه هو وغلمانه في حراسة الحدود الغربية للبلاد وعلى خطوات الدولة الطولونية نفسها سارت الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ) في معاملة النصارى؛ فكان أمراؤها يحرصون على معاملتهم معاملة طيبة، وقد استعانوا بهم في كافة الوظائف، وبخاصة الشئون المالية، وقد كان عامل الخراج الذي تولّى خراج مصر للأمراء الإخشيديين في هذه الفترة ابن عيسى بقطر بن شفا،ويلاحظ في هذا العصر استخدام الإخشيديين لليهود بجوار النصارى في شئون الإدارة وأعمال الحكومة، وكان من الشخصيات اليهودية البارزة في هذا المجال يعقوب بن كلّس اليهودي، من مستشاري كافور، ومن أقرب الناس إليه، ومن شدَّة إعجاب كافور الإخشيدي بابن كلّس أنه أمر جميع رؤساء الدواوين بألاّ يُصرَف درهمٌ أو دينارٌ إلا بتوقيع ابن كلّس، وذلك في سنة ٣٥٦هـ.

ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصَّة باليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها، وإنْ أَثَر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد، حتى كادت لا تخلو منها ناحية.

ويُذكَر أنه كان للخليفة الطائع (٣٦٣-٣٨١هـ) كاتب نصراني، وفي النصف الثاني من القرن الرابع اتخذ كلٌ من عَضُدِ الدولة المتوفى عام (٣٧٢هـ) في بغداد، والخليفة العزيز بالله في القاهرة - وزيرًا نصرانيًّا، وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البِيَعِ والأديرة، وفي إطلاق المال لفقراء النصارى، فأَذِن له[١٥].

المطلب الثالث
الولايات السياسية في الدولة الإسلامية وتمكين أهل الذمة من ولاية أمر المسلمين

لولاية أمر المسلمين من حيث العموم والخصوص أربع صور:

الصورة الأولى: من يكون عام الولاية عام العمل: كالخليفة والملك والسلطان

والرئيس، فولايته عامة تشمل الرقعة الإسلامية، ونظره وعمله في الأمور جميعها.
والصورة الثَّانِية: من يكون خاص الولاية عام العمل، كولاة الْأَقَالِيمِ وَأمراء الْبُلْدَانِ، فولايته محدودة بحدود إقليمه، ونظره عام في كل أمره.
وَالْصورة الثالثةُ: من يكون عام الولاية خاص العمـل، كالقائـد الأعلـى للجـيش، وكرئيس القضاة الأعلى، وَحَامِي الثُّغُورِ وَمُسْتَوْفِي الْخَرَاجِ وَجَابِي الـصَّدَقَاتِ، لِـأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تعم ولايته الرقعة الإسلامية كلها، ولكنها خاصة في عمل معين.
وَالصورة الرَّابِعُة: مَنْ تَكُونُ وِلَايَتُهُ خَاصَّةً فِي الْأَعْمَالِ الْخَاصَّةِ، وَهُمْ كَقَاضِي بَلَدٍ أَوْ إقْلِيمٍ أَوْ مُسْتَوْفِي خَرَاجِهِ أَوْ جَابِي صَدَقَاتِهِ، أَوْ حَامِي ثَغْرِهِ أَوْ نَقِيبِ جُنْدٍ، لِـأَنَّ كُـلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ولايته خاصة برقعة محدودة، ونظره محدد بعمل مَخْصُوصٍ، وكل هـذه الأمور فيها عز النفس وعلو اليد، واطلاع على أسرار المسلمين ودواخل أمـورهم، فلذا لا يجوز أن يتولاها غير المسلمين الأمناء على دينهم وديارهم(١٦).

وذلك أن الدولة الإسلامية دولة ذات عقيدة ولها رسـالة، ورسـالتها ليـست قاصرة على توفير الرفاهية ورغد العيش في الحياة الدنيا لأفرادها، وإنما هي مكلفة بالعمل وفق هذه العقيدة، وتبليغ تلك الرسالة إلى كل من يمكـن أن تـصل إلـيهم؛ رحمة بهم وشفقة عليهم ورغبة في إخراج من شاء الله منهم مـن الظلمـات إلـى النور، وهذا يتطلب جهدا كبيرا وبذلا عظيما، مع ما تحتاج إليه الدولة مـن الجهـاد في سبيل الله لبلوغ هذه الغاية، وهذا يعني أنه لا يقوم بهذه المهمة ولا يقـدر علـى ذلك إلا من هو مؤمن بهذه الرسالة معتقد لها، مستعد للبذل والعطاء فـي سـبيلها، يرى في نشرها وتبليغها الفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة، لذا كان مـن الأمـور المنطقية ألا يقوم على هذه الدولة إلا المؤمنون برسالتها، ومن هنا يتبـين أن ولـي الأمر لا يجوز أن يكون ممن لا يؤمنون بهذه الرسالة.

وتكليف أهل الذمة بتولي الأمر، يعني أحد أمـرين: إمـا تكلـيفهم بالعمـل والسعي في نصرة ما يناقض أو يخالف دينهم أو عقيدتهم وهذا يعد إكراها لهم، وإما التفريط في رسالة الدولة وإضاعتها، وكلا الأمرين غير مقبول، يقول محمد أسـد :"

إننا يجب ألا نتعامى عن الحقائق، فنحن لا نتوقع من شخص غير مسلم مهما كان نزيها مخلصا وفيا محبا لبلاده متفانيا في خدمة مواطنيه، أن يعمل من صميم فؤاده لتحقيق الأهداف {الأيديولوجية} للإسلام، وذلك بسبب عوامل نفسية محضة لا نستطيع أن نتجاهلها، إنني أذهب إلى حد القول أنه ليس من الإنصاف أن نطلب منه ذلك، ليس هناك في الوجود نظام (أيديولوجي) سواء قام على أساس الدين أو غير ذلك من الأسس الفكرية من أي نوعٍ يمكن أن يرضى بأن يضع مقاليد أموره في يد شخص لا يعتنق الفكرة التي يقوم عليها هذا النظام"[١٧]

ما يجوز من الاستخدام أو الاستعانة:

يجوز الاستعانة بأهل الذمة واستخدامهم فيما يحتاج إليه المسلمون، وفق عدة شروط، منها:

١- أن لا يكون في ذلك ولاية على المسلمين.

٢- أن يكون حسن الرأي في المسلمين.

٣- أن تكون بالمسلمين حاجة إليه.

والوقائع التي حدثت في السيرة تدل على هذا الجواز بتلك القيود المذكورة، وإذا تأمل المتأمل ما يساق من وقائع في ذلك، لا يجد فيها استعانة أو استخدامًا مطلقًا، بل يجدها مقيدة بأحد القيود السابقة، كاستئجار الرسول e في الهجرة دليلا مشركا خبيرا بالطرق، فهي ليست ولاية، وكان الرجل مأمونا وكان الرسول e في حاجة لذلك، وكذلك اتخاذه عينا (جاسوسًا) من خزاعة على مشركي قريش وكانت خزاعة عيبة نصح[١٨] لرسول الله e مشركهم ومسلمهم، ونحو ذلك من الأمور.

ولقد عُومل أهل الكتاب على مدار التاريخ الإسلامي معاملة عادلة من المسلمين، لا ظلم فيها ولا شطط، شهد بذلك مؤرخوهم ومفكروهم، فهذا عمر t وهو على فراش الموت، يقول قولته المشهورة وهو يوصي من يتولى أمور المسلمين بعده: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله e: أن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يُقاتل مِن ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم"[١٩]، فهم ذمة الله تعالى وذمة رسوله e،

يجب الوفاء بما عوهدوا عليه، وأن لا يُنتقص منه شيء، وأن يُدافع عنهم ضد أي اعتداء، وأن لا يكلفوا من الأعمال فوق طاقتهم، وقد ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج أن عمر t رأى رجلا كبيرًا يسأل الناس، فلما علم أنه من أهل الذمة، وأنه يسأل من أجل الفقر الذي به، ولكي يدفع الجزية المطلوبة منه، وضع عنه عمر الجزية، وأعطاه شيئا من عنده، وقال: ما أنصفناه إن أخذنا منه وقت شبابه وقوته على الكسب، ثم نتخلى عنه عند ضعفه وعدم قدرته على التكسب، وانظر موقف ابن تيمية عندما ذهب لملك التتار يفاوضه على الإفراج عن الأسرى، فأعطاه ملك التتار الأسرى من المسلمين، فأبي الشيخ إلا أن يفرج عن أهل الذمة أيضا؛ لأنهم ذمة المسلمين، واستنقاذهم من بين يدي الأعداء واجب المسلمين(٢٠).

قال ابن الأزرق فيما نقله عن القرافي: "وقد حكى ابن حزم في مراتب الإجماع، أن من كان في الذمة وقصده العدو في بلادنا، وجب الخروج لقتالهم، حتى نموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسول الله e؛ لأن تسليمه إهمال لعقد تلك الذمة "(٢١)، وعقد الذمة عقد مؤبد يكتسب قوته من أمر الله تعالى للمسلمين بالوفاء بالعقود، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

ولا تعني المعاملة العادلة أن يعطى أهل الذمة ما لم تعطه لهم النصوص الشرعية، فإن ذلك وإن كان فيه تفضل عليهم بما ليس لهم، لكنه من الناحية الثانية فيه ظلم للمسلمين بإعطاء بعض من حقوقهم لغيرهم، ومن ذلك الولايات السياسية، وهو موضوع الفقرة التالية.

تمكين أهل الذمة من ولاية أمر المسلمين:

ورد النهي عن تمكين غير المسلمين (أهل الذمة وغيرهم) من ولاية أمر المسلمين على أي صورة كان ذلك، وفي ذلك أدلة كثيرة فمنها:

١ - النهي عن توليهم واتخاذهم أولياء:

لقد تعددت النصوص الشرعية الواردة في ذلك في مواضع عدة من القرآن وفي مواقف مختلفة، وتنوعت أساليبها، فمرة تنهي عن اتخاذهم أولياء، وأخرى تبين

أن الكفار بعضهم أولياء بعض، وثالثة تحصر موالاة المؤمنين في المؤمنين فلا تتعداها لغيرهم، وقد تنوعت النصوص الزاجرة عن مخالفة ذلك في بيان العقوبات المترتبة على المخالفة.

والموالاة المنهي عنها ليست عملا قلبيا فقط، بل منها القلبي ومنها العملي، وكلاهما منهي عنه ومحرم على المؤمنين، وبعضه أشد جرما ومعصية من بعض. فمن الموالاة العملية: التحالف والنصرة، والركون، والمعونة، والمظاهرة. ومن الموالاة القلبية: المحبة لهم وركون القلب إليهم والأنس بهم والمودة لهم، حتى وإن كان الواد المحب لا يوافقهم على دينهم، كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾، وإذا كان المؤمنون منهيين عن مودة الكافرين والركون إليهم، فهل يقوم بعد هذا في تصور إنسان يعقل ويدري ما يقول ويخرج من رأسه أنه يجوز أن تقر الشريعة ولاية أهل الذمة للمسلمين ؟، فالنصوص التي تنهى عن اتخاذهم حلفاء أو الانتصار بهم، تنهى من باب أولى عن توليتهم للإمارة أو دخولهم فيمن يسندها لمن يستحقها من المسلمين، فإن هذا من أعظم الموالاة.

وقد وردت في ذلك آيات متعددة، وأهل العلم في تفسيرهم لآية من هذه الآيات يوردون الآيات الأخر، وذلك دليل على أنها كلها تدل على المعنى نفسه: فمن النصوص الواردة في المسألة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:٥١). قال الطبري في تفسيرها: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى نهَىَ المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاءَ على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرَهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزُّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان"[٢٢]، وفي تفسيرها أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عِيَاضٍ، أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ لَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ فَعَجِبَ عُمَرُ،

وَقَالَ:"إِنَّ هَذَا لَحَفِيظٌ هَلْ أَنْتَ قَارِئٌ لَنَا كِتَابًا فِيَ الْمَسْجِدِ جَاءَ مِنَ الشَّامِ ؟،"فَقَالَ: إِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ، قَالَ عُمَرُ:"أَجُنُبٌ هُوَ ؟، قَالَ: لا بَلْ نَصْرَانِيٌّ، قَالَ: فَانْتَهَرَنِي وَضَرَبَ فَخِذِي، قَالَ: أَخْرِجُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، وروى ابن أبي حاتم أيضا بسنده قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُتْبَةَ: "لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ، يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لا يَشْعُرُ"، قَالَ: فَظَنَنَّاهُ أَنَّهُ يُرِيدُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(٢٣)

وقال الجصاص الحنفي في تفسير قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾: "فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ الصَّغَارِ الَّذِي أَلْبَسَ اللَّهُ الْكُفَّارَ بِكُفْرِهِمْ؛ وَنَحْوُهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، فَنَهَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَإِكْرَامِهِمْ وَأَمَرَ بِإِهَانَتِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ، وَنَهَى عَنْ الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْعِزِّ، وَعُلُوِّ الْيَدِ، وَكَذَلِكَ كَتَبَ عُمَرُ إلَى أَبِي مُوسَى يَنْهَاهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي كِتَابَتِهِ، وَتَلَا قَوْله تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ (٢٤)

قال ابن العربي المالكي: "لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَلِيَ وِلَايَةً أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلِيًّا فِيهَا لِنَهْيِ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُخْلِصُونَ النَّصِيحَةَ، وَلَا يُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"(٢٥)، وقال ابن كثير: "ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٦)، ثم أورد أثري ابن أبي حاتم السابقين.

وقال الرازي: "روي عن أبي موسى الأشعري t أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب t : إن لي كاتباً نصرانياً، فقال: مالك قاتلك الله ؟، ألا اتخذت حنيفاً، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَاء﴾

قلت: له دينه ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام، يعني هب أنه قد مات فما تصنع بعده ؟، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره"[٢٧]، وقال النسفي: "أي لا تتخذوهم أولياء تتصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين"[٢٨]، وقد ورد بمعنى الآية المتقدمة قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ﴾، قال ابن كثير في تفسيرها: "نهى الله -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يُسِرُّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾، أي: من يرتكب نهى الله في هذا فقد برئ من الله كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء:١٤٤)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ إلى أن قال: وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة:١)، وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣)[٢٩]

قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: "قيل: وفي الآية دليل على أنّ الكافر لا يستحق على المسلم ولاية بوجه: ولداً كان أو غيره، وأن لا يستعان بذمي في أمر يتعلق به نصرة وولاية، كقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾" [٣٠]، وقد بين القرآن سبب مسارعة بعض من يظهر الانتساب للإسلام في التحالف مع الكفار، وأن ذلك نتيجة ضعف إيمانهم أو ذهابه بالكلية؛ لكي يكون لهم الكفار نصراء وحلفاء عند الحاجة، يقول ابن كثير في تفسير الآية، وكأنه يصف حال كثير من أهل زماننا

ممن يوالون اليهود والنصارى ويسارعون فيهم: "وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وريب ونفاق، ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك عند ذلك"(٣١)، وهذه في الحقيقة حجة كثيرين ممن يزعمون أن لأهل الذمة الحق في المشاركة في الحياة السياسية في بلاد المسلمين، يصطنعون بذلك يدًا عند أمم الكفر الغالبة، موافقة لهم ومداهنة لهم.

ومن تتبع الشروط الواردة في ولاية أمر المسلمين في جميع كتب أهل العلم من جميع المذاهب، علم يقينا أنه لا يجوز بحال أن يتولى كافر ولاية الأمر، سواء كان كافرا أصليا أو كافرا لردته عن الإسلام، وسواء كان غازيًا محتلا لبلاد لمسلمين، أو كان من أهل الذمة المقيمين في بلاد المسلمين.

فما نسمعه اليوم من المنتسبين إلى بعض الجماعات الإسلامية الخائضين في الانتخابات البرلمانية، من أنه يجوز للنصراني في بلد المسلمين أن يكون وليا للأمر هو باطل بيقين ومخالف لإجماع المسلمين، قال القاضي عياض: "أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ الْإِمَامَة لَا تَنْعَقِد لِكَافِرٍ، وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْر انْعَزَلَ، قَالَ: وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَة الصَّلَوَات وَالدُّعَاء إِلَيْهَا"(٣٢) ونقل هذا الإجماع أيضا ابن حجر فقال: يَنْعَزِل بِالْكُفْرِ إِجْمَاعًا(٣٣).

وقال ابن الأزرق: "(بعدما ذكر كلام ابن العربي المتقدم) قلت: وقد ورد العمل بذلك عن السلف، قولاً وفعلاً، ويكفي من ذلك روايتان: الرواية الأولى: (وذكر رواية عمر t مع أبي موسى الأشعري t التي سبقت)، الرواية الثانية: قال: "وكتب عمر بن عبد العزيز t إلى بعض عماله: أما بعد فإنه بلغني أن في عملك رجلاً يقال له فلان -وسمّاه- على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإذا أتاك كتابي هذا، فادع فلاناً

إلى الإسلام، فإن من أعمال المسلمين، فقرأ عليه الكتاب، فأسلم"(٣٤)، وما تقدم من الأدلة والأقوال دليل على أنه لا يجوز أن تكون لأهل الذمة ولاية على المسلمين، سواء كان في ولاية عامة أو خاصة، وقد سئل أحمد بن حنبل: "(في رواية أبي طالب) نستعمل اليهودي والنصراني في أعمال المسلمين مثل الخراج ؟، فقال: لا يستعان بهم في شيء"(٣٥).

٢ - النهي عن اتخاذهم بطانة:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران:١١٨)، بوب البخاري في صحيحه باب: بِطَانَة الْإِمَام وَأَهْل مَشُورَته، الْبِطَانَة: الدُّخَلَاء، قَال ابن حجر في الشرح: قوله (بَاب بِطَانَة الْإِمَام وَأَهْل مَشُورَته) بِضَمِّ الْمُعْجَمَة وَسُكُون الْوَاو وَفَتْح الرَّاء: مَنْ يَسْتَشِيرهُ فِي أُمُوره، قَوْله (الْبِطَانَة: الدُّخَلَاء) هُوَ قَوْل أَبِي عُبَيْدَة قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَة مِنْ دُونكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، الْبِطَانَة: الدُّخَلَاء، وَالْخَبَال: الشَّرّ انْتَهَى. وَالدُّخَلَاء بِضَمٍّ ثُمَّ فَتْح جَمْع دَخِيل: وَهُوَ الَّذِي يَدْخُل عَلَى الرَّئِيس فِي مَكَان خَلْوَته وَيُفْضِي إِلَيْهِ بِسِرِّهِ وَيُصَدِّقهُ فِيمَا يُخْبِرهُ بِهِ مِمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْر رَعِيَّته وَيَعْمَل بِمُقْتَضَاهُ"(٣٦).

قال ابن جرير: "فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم"(٣٧)، وقد بين ابن جرير أن هؤلاء "هم الذين وصفهم تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، ممن كان له ذمةٌ وعهدٌ من رسول الله ﷺ وأصحابه من أهل الكتاب"(٣٨).

وقال القرطبي: " قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾..الآية، فيه ست مسائل: الأولى: أكد الله تعالى الزجر عن الركون إلى الكفار وهو متصل بما سبق من قوله: ﴿إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب﴾، (آل عمران:١٠٠)، والبطانة مصدر، يسمى به الواحد والجمع، وبطانة الرجل خاصته

الذين يستبطنون أمره، وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر، وبطن فلان بفلان يبطن بطونا وبطانة إذا كان خاصا به.

قال الشاعر: أولئك خلصائي نعم وبطانتي* وهم عيبتي من دون كل قريب. الثانية: نهى الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم، ثم بين تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ يقول: فسادا، يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة، وعن عمر t قال: "لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى"، وقيل لعمر t : "إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحدَ أكتبَ منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك ؟، فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين".

فلا يجوز استكتاب أهل الذمة، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم، قلت: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء.

وروى أنس t قال: قال رسول الله e: "لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيا"[٣٩]، فسره الحسن بن أبي الحسن فقال: أراد عليه السلام: لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم محمدا، قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ الآية[٤٠].

وقال ابن الجوزي: "قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه الآية دلالة على أنَّه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة، ولهذا قال أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذِّمة على قتال أهل الحرب، وروي عن عمر t أنه بلغه أنَّ أبا موسى استكتب رجلاً من أهل الذمة، فكتب إليه يعنفه، وقال: لا تردوهم إلى العزِّ بعد إذ أذلهم الله"[٤١]، وذكر ابن كثير: "عن ابن أبي الدِّهْقانة قال: قيل لعمر

بن الخطاب t : إن هاهنا غُلاما من أهل الحِيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبًا ؟، فقال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين، ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة على المسلمين واطِّلاع على دَوَاخل أمُورهم التي يُخْشَى أن يُفْشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾(٤٢)

قال ابن القيم: ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم(٤٣)نوعاً من توليهم(٤٤)، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية وصلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبداً"(٤٥).

فهذه الآية تمنع من اطلاع الكفار على إسرار المسلمين وقد بينت الآيات العلة في ذلك وهو كره الكفار للمسلمين ورغبتهم في حصول ما يعنتهم ويشق عليهم، وليس هناك من اطلاع على أسرار المسلمين أكثر من أن يصير الرجل متوليا لبعض أمورهم.

٣ - النهي عن الركون إليهم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾، قال ابن كثير: "وقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾، أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه"(٤٦)، فهو نهي عن الاستعانة بالظلمة، ويدخل فيهم دخولا أولياء أهل الذمة فهم كفار وقد قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وقال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. وقال القرطبي: "فيه أربع مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى، الشيء والرضا به، قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، ابن جريج: لا تميلوا إليهم، أبو العالية: لا ترضوا

أعمالهم، وكله متقارب، وقال ابن زيد: الركون هنا: الادهان وذلك ألا ينكر علـيهم كفرهم. الثانية: قرأ الجمهور: ﴿تركنوا﴾ بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو: هي لغة أهـل الحجاز، وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة وغيرهمـا:"تركنـوا"بـضم الكـاف؛ قـال الفراء:وهي لغة تميم وقيس، وجوز قوم ركن يركن مثل منع يمنع، الثالثـة: قولـه تعالى: ﴿إلى الذين ظلموا﴾، قيل: أهل الشرك،وقيل: عامة فيهم وفي العصاة، علـى نحو قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾..الآية (الأنعـام: ٦٨). وهـذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عـن مـودة، وقد قال حكيم: عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه* فكل قرين بالمقـارن يقتـدي، الرابعة: قوله تعالى: ﴿فتمـسكم النـار﴾ أي تحـرقكم، بمخـالطتهم ومـصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم، وموافقتهم في أمورهم"(٤٧).

وكل ما أوردناه فيما سبق من الأدلة والنقول دال على عـدم جـواز توليـة الكفار أهل الذمة وغيرهم الولاية على المسلمين، وإن كان هذا لا يمنع من استخدام من كان منهم حسن الرأي في المسلمين، وذلك في غير ولاية الأمر أو ما فيه علـو واستطالة على المسلمين أو ما كان فيه اطلاع على أسرارهم.

المطلب الرابع
الرد على شبهات ولاية غير المسلمين أمر المسلمين

بينتُ عدالة الشريعة الإسلامية في تعاملها مع أهل الذمة، والتزام المـسلمين بذلك في تعاملهم معهم، ثم سقتُ الأدلة التي تبين أنه لا يجوز توليـة أهـل الذمـة الولايات السياسية في بلاد المسلمين، ونقلت طائفة كبيرة من أقوال أهل العلـم مـن مختلف المذاهب في ذلك، وبفعل ما فيه بلاد المسلمين اليوم من ضعف وتخاذل أمام عدو الله وعدو المسلمين، نجد اليوم من المسلمين من يحاول أن يؤكد مساواة أهـل الذمة للمسلمين في حق تولي الولايات، بأنواع من الكلام الذي يظنه أدلة وما هـي إلا شبهات، سَهَّل قبولها لديه والدعوة إليها والتمسك بها، الحالة التي عليها العلاقات

الدولية اليوم، وها نحن أولاء نعرض لبعض هذه الشبهات ونرد على ما اشتبه منها:

١ - وزارة التنفيذ ووزارة التفويض:

لقد تصرمت قرون الإسلام وانقضت بالاتفاق على أن أهل الذمة لا ولاية لهم على المسلمين في شيء، وهذا الاتفاق لا يخدشه -كما يتوهم البعض- ما نقل عن الماوردي (الشافعي) بإجازته لأهل الذمة أن يكونوا وزراء تنفيذ، والذي دعا الماوردي لذلك هو تصويره لهذا النوع من الوزارة على أنه ليس من ولاية الأمر، حيث يقول عن الذمي المعين في وزارة التنفيذ: "فهو معين في تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلدا لها[٤٨] وسبب ذلك ما تقرر عنده -كما عند بقية أهل العلم- أن الولاية لا يجوز عقدها لغير المسلم، لكن الماوردي مع ذلك محجوج بالنصوص الشرعية التي تنهى عن ذلك، ومحجوج بعمل الخلفاء الراشدين وأصحاب السيرة المستقيمة من الخلفاء الأمويين أو العباسيين[٤٩]، وقد رد عليه الجويني بكلام شديد فقال: "ذكر مصنف الكتاب المترجم بالأحكام السلطانية أن صاحب هذا المنصب يجوز أن يكون ذميا، وهذه عثرة ليس لها مقيل، وهي مشعرة بخلو صاحب الكتاب عن التحصيل، فإن الثقة لا بد من رعايتها، وليس الذمي موثوقا به في أفعاله وأقواله وتصاريف أحواله، وروايته مردودة، وكذلك شهادته على المسلمين، فكيف يقبل قوله فيما يسنده ويعزيه إلى إمام المسلمين" ثم ذكر بعضا من الأدلة إلى أن يقول: "وقد نص الشافعي رحمة الله عليه أن المُترجِم الذي يُنهي إلى القاضي معاني لغات المدعين يجب أن يكون مسلمًا عدلًا رضيًّا، ولست أعرف في ذلك خلافا بين علماء الأقطار، فكيف يسوغ أن يكون السفير بين الإمام والمسلمين من الكفار"[٥٠].

ويجوز للخليفة أن يقلد وزيرين: وزير تفويض ووزير تنفيذ، فيكون وزير التفويض مطلق التصرف، ووزير التنفيذ مقصورا على تنفيذ ما وردت به أوامر الخليفة. ولا يجوز لوزير التنفيذ أن يولي معزولا ولا أن يعزل مولى، ويجوز لوزير التفويض أن يولي المعزول ويعزل من ولاه ولا يعزل من ولاه الخليفة، وليس لوزير التنفيذ أن يوقع عن نفسه ولا عن الخليفة إلا بأمره ويجوز للوزير

التفويض أن يوقع عن نفسه إلى عماله وعمال الخليفة ويلزمهم قبول توقيعاته ؛ ولا يجوز أن يوقع عن الخليفة إلا بأمره في عموم أو خصوص، وإذا عزل الخليفة وزير التنفيذ لم ينعزل به أحد من الولاة.

وإذا عزل وزير التفويض انعزل به عمال التنفيذ ولم ينعزل به عمال التفويض لأن عمال التنفيذ نواب وعمال التفويض ولاة، ويجوز لوزير التفويض أن يستخلف نائبا عنه، ولا يجوز لوزير التنفيذ أن يستخلف من ينوب عنه، لأن الاستخلاف تقليد فصح من وزير التفويض ولم يصح من وزير التنفيذ، وإذا نهى الخليفة وزير التفويض عن الاستخلاف لم يكن له أن يستخلف، وإذا أذن لوزير التنفيذ في الاستخلاف جاز له أن يستخلف لأن كل واحد من الوزيرين يتصرف عن أمر الخليفة ونهيه وإن افترق حكمهما مع إطلاق التقليد.

وإذا فوض الخليفة تدبير الأقاليم إلى ولاتها ووكل النظر فيها إلى المستولين عليها كالذي عليه أهل زماننا جاز لمالك كل إقليم أن يستوزر، وكان حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة مع الخليفة في اعتبار الوزارتين وأحكام النظرين.

ووزير التنفيذ هو الذي ينفذ ما دبره الإمام، فهو واسطة بين الإمام والرعية، يبلغ ما دبره الإمام ويعرض عليها ما حدث من الأمور، ولا يفتقر إلى تقليد بل الإذن، ولا يشترط فيه الحرية ولا العلم، لأنه يتصرف، بل مبلغ، بل اشترط فيه سبعة أوصاف: الأمانة، والصدق، وقلة الطمع، وعدم العداوة بينه وبين الناس، والذكورة، والفطنة، وأن لا يكون مبتدعا، فإن شارك في الرأي اشترطت فيه الحكمة، والتجربة، ومعرفة العواقب، ويجوز أن يكون ذميًّا، ويجوز أن يكون اثنين على الاجتماع والافتراق، بخلاف وزير التفويض، لأن عموم النظر يمنع من ذلك كإمامين، ويجوز مع وزير التفويض وزير تنفيذ، ويجوز لوزير التفويض الاستتابة عنه بخلاف الآخر.

وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل؛ لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره، وهذا الوزير وسيط بينه وبين الرعايا والولاة يؤدي عنه

ما أمر، وينفذ عنهما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وتجدد من حدث ملم، ليعمل فيه ما يؤمر به، فهو معين في تنفيذ الأمور، وليس بوال عليها ولا متقلدًا لها، فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص، وإن لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسفارة أشبه.

٢ - هل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ؟.

هناك من يزعم –من المسلمين- أن أهل الذمة في البلاد الإسلامية لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وأن لهم تولي مناصب الدولة كما للمسلمين، ويستدلون على زعمهم ذلك أن هذه قاعدة شرعية، أو ما ينسبه البعض الآخر للرسول e أنه قال: لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وهذا لا شك في خطئه فليست هناك قاعدة شرعية تذكر ذلك كما أن الرواية المزعومة من الكذب على رسول الله e، بل هذا النص إنما ورد في حق من أسلم من الكفار، فقد سأل ميمون بن سياه أنس بن مالك قال: يا أبا حمزة ما يحرم دم العبد وماله ؟، فقال: "من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم"(٥١) وأخرجه النسائي بلفظ: " أن رسول الله e قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم"(٥٢) وأخرجه أبو داود بلفظ "قال رسول الله e: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين"(٥٣)، فأخذه هؤلاء وجعلوه لأهل الذمة، وأهل الذمة كفار لم يشهدوا أن لا إله إلا الله، ولم يشهدوا أن محمدا رسول الله، ولم يستقبلوا قبلتنا ولم يصلوا صلاتنا، ولا أدرى هل وقعوا في ذلك جهلا أو عمدا، ولا شك أن هذا القول الذي ينسبه هؤلاء لرسول الله e مخالف

لكل ما تقدم من الأدلة التي أورتها في الحلقة الأولى من المقالة، وليس في أيدي هؤلاء أكثر من محاولة بيان عدم دلالة هذه الأدلة، بأنواع مستكرهة من التأويل.

ولأهل الذمة الحق في تولى وظائف الدولة كالمسلمين، إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ورئاسة الدولة والقيادة في الجيش، والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات ونحو ذلك. فالإمامة أو الخلافة رياسة عامة في الدين والدنيا، خلافة عن النبي e ولا يجوز أن يخلف النبي e في ذلك إلا مسلم، ولا يعقل أن ينفذ أحكام الإسلام ويرعاها إلا مسلم. وقيادة الجيش ليست عملاً مدنيًا صرفًا، بل هي عمل من أعمال العبادة في الإسلام إذ الجهاد في قمة العبادات الإسلامية. والقضاء إنما هو حكم بالشريعة، ولا يطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به، ومثل ذلك الولاية على الصدقات ونحوها من الوظائف الدينية.

وماعدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بد منها من الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة؛ بخلاف الحاقدين الذين تدل الدلائل على بغض مستحكم منهم للمسلمين، كالذين قال الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران:١١٨).

وقد بلغ التسامح بالمسلمين أن صرح فقهاء كبار -مثل الماوردي في "الأحكام السلطانية"- بجواز تقليد الذمي "وزارة التنفيذ"، ووزير التنفيذ هو الذي يبلغ أوامر الإمام ويقوم بتنفيذها ويمضي ما يصدر عنه من أحكام. وهذا بخلاف "وزارة التفويض" التي يكل فيها الإمام إلى الوزير تدبير الأمور السياسية والإدارية والاقتصادية بما يراه.

وقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة، منهم نصر بن هارون سنة ٣٦٩هـ، وعيسى بن نسطورس سنة ٣٨٠هـ، وقبل ذلك كان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون.

وقد بلغ تسامح المسلمين في هذا الأمر أحيانًا حد المبالغة والجور على حقوق المسلمين، مما جعل المسلمين في بعض العصور يشكون من تسلط اليهود والنصارى عليهم بغير حق. وقد قال المؤرخ الغربي آدم ميتز: "من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال (الولاة وكبار الموظفين) والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين شكوى قديمة"(٥٤). يقول أحد شعراء المصريين الحسن بن خاقان في يهود عصره وسيطرتهم على حكامه:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

المجد فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر، إني نصحتُ لكم تهودوا قد تهود الفلك(٥٥).

وقال آخر بيتين تمثَّل بهما الفقيه الحنفي الشهير "ابن عابدين" لما رأى من استئثار غير المسلمين في زمنه على المسلمين، حتى إنهم يتحكمون في الفقهاء والعلماء وغيرهم: أحبابنا نوب الزمان كثيرة وأمرّ منها رفعة السفهاء.

فمتى يفيق الدهر من سكراته وأرى اليهود بذلة الفقهاء(٥٦).

وهذا من أثر الجهل والانحراف، والاضطراب الذي أصاب المجتمع الإسلامي في عصور الانحطاط، حتى انتهى الأمر إلى عزة اليهود وذلة الفقهاء.

وآخر ما سجّله التاريخ من ذلك ما سارت عليه الدولة العثمانية في عهدها الأخير، حيث أسندت كثيرًا من وظائفها الهامة إلى رعاياها من غير المسلمين، ممن لا يألونها خبالاً، وجعلت أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى(٥٧).

٣ - قوله تعالى: ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وما تلاها شرط في الحكم أم هو كشف عن حقيقة أمرهم ؟.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران:١١٨)، في هذه الآية كشف وبيان لحقيقة موقف

أهل الذمة من المسلمين، ولفظ الآية ونظمها يبين أن ما ذكر فيها هو من خصائص القوم وصفاتهم المتأصلة فيهم، فالله تعالى ينهانا أن نتخذ من أهل الذمة بطانة ويكشف لنا عن حقيقة موقفهم من المسلمين فيقول: إنهم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم، ثم يبين الله تعالى أن الأمر أكبر مما ظهر بقوله: {وما تخفي صدورهم أكبر}، ثم يقول الله تعالى محرضا المؤمنين على عدم اتخاذهم بطانة: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾، فجاء أناس ممن يريد لَيَّ النصوص ويدعي الفهم والاستنارة فزعم أن قوله تعالى: ﴿لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم﴾، هو شرط لتطبيق الحكم، فإذا تخلف ذلك الشرط جاز اتخاذهم بطانة، فإذا كان أهل الذمة ممن لا يجتهدون في أذيتنا، ولا يودون لنا التعب والمشقة، ولم تظهر البغضاء من أفواههم، جاز اتخاذهم بطانة، وهذا ما لم يقله أحد من أهل العلم السابقين.

ولفظ الآية يأبي هذا التفسير فالآية تكشف عن حقيقتهم: ﴿يا أيها الذين لآمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا﴾. الآية، فهذه حقيقتهم والصفة المتأصلة فيهم، ولذلك حسن أن يقال عنهم: قد بدت البغضاء من أفواههم، تأكيدًا وتوثيقا للحكم في نفوس السامعين، وحسُن قوله تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعلقون﴾، وكأن فيها جوابا أو ردا لمن يقول: وإذا لم يظهر منهم ما نكره من الأقوال أو الأفعال ؟، فيقال لهم: إن كانت لكم عقول تعقلون بها عداوتهم لكم، فقد بينا لكم الآيات الدالة على ذلك، ولذلك يقول ابن جرير في تفسيرها: " فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم ومن مخالّتهم"، فهم منطوون على هذه الأمور وليست هي شرطا أو قيدا في الحكم تزول بزواله، ومن الذي يقدر على العلم بذلك وهي أمور قلبية لا يطلع عليها الناس، ومع هذا الوضوح فقد زعم بعض من لم يفهم كلام أهل العلم أن الطبري ممن يرى جواز الاستعانة بغير المسلمين في أمور المسلمين وشئونهم، مع أن الطبري بيَّن ذلك بعبارة واضحة

وهو يرد على من يقول إن الذين بدت البغضاء من أفواههم هم المنافقون، قــال : " القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: قد بدت بغضاء هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون، أن تتخذوهم بطانة من دونكم لكم ﴿من أفواههم﴾، يعني بألسنتهم، والذي بدا لهم منهم بألسنتهم، إقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمونَ من الضلالة، فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان، لأن ذلــك عــداوة على الدين، والعداوة على الدين العداوةُ التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعــاديين إلى ملة الآخر منهما، وذلك انتقال من هدى إلى ضلالة كانت عنــد المنتقــل إليهــا ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبينُ الدلالة لأهــل الإيمان على ما هم عليه من البغضاء والعداوة" ثم نقل عن قتادة: "قوله: ﴿قد بــدت البغضاء من أفواههم﴾، يقول: قد بدت البغضاء من أفواهُ المنافقين إلى إخوانهم مــن الكفار، من غشهم للإسلام وأهله، وبغضهم إياهم" ثم عقب عليه بقوله: "وهذا القــول الذي ذكرناه عن قتادة، قول لا معنى له"، ثم بدأ يبين سبب حكمه على ما قاله قتــادة فقال: "وذلك أن الله تعالى ذكره إنما نهى المؤمنين أن يتخذوا بطانة ممن قد عرفــوه بالغش للإسلام وأهله والبغضاء، إما بأدلة ظاهرة دالة على أنّ ذلك مــن صــفتهم، وإما بإظهار الموصوفين بذلك العداوة والشنآن والمناصبة لهم. فأما من لــم يُثْبِتــوه معرفةً أنه الذي نهاهم الله عز وجل عن مخالّته ومباطنته، فغير جــائز أن يكونــوا نهوا عن مخالته ومصادقته، إلا بعد تعريفهم إياهم، إما بأعيانهم وأســمائهم، وإمــا بصفات قد عرفوهم بها. وإذْ كان ذلك كذلك وكان إبداء المنافقين بألسنتهم مــا فــي قلوبهم من بغضاء المؤمنين إلى إخوانهم من الكفار، غير مدرِك به المؤمنون معرفةَ ما هم عليه لهم، مع إظهارهم الإيمانَ بألسنتهم لهم والتودد إليهم كان بيِّنًا أن الــذي نهى الله المؤمنون عن اتخاذهم لأنفسهم بطانة دونهم، هم الذين قــد ظهــرت لهــم بغضاؤهم بألسنتهم، على ما وصفهم الله عز وجل به، فعرَفهم المؤمنــون بالــصفة التي نعتهم الله بها، وأنهم هم الذين وصفهم تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها

خالدون، ممن كان له ذمةٌ وعهدٌ من رسول الله e وأصحابه من أهل الكتاب، لأنهم لو كانوا المنافقين، لكان الأمر فيهم على ما قد بينا، ولو كانوا الكفار ممن قد ناصب المؤمنين الحربَ، لم يكن المؤمنون متخذيهم لأنفسهم بطانة من دون المؤمنين، مع اختلاف بلادهم وافتراق أمصارهم، ولكنهم الذين كانوا بين أظهُر المؤمنين من أهل الكتاب أيامَ رسول الله e ممن كان له من رسول الله e عهد وعقدٌ من يهود بني إسرائيل"(٥٨). فالمعنيون بهذه الآيات ليسوا هم المنافقين وليسوا هم الكفار من أهل الحرب وإنما كفار أهل الذمة.

لقد كانت هناك فترات من الزمن تخلى فيها المسلمون عن كثير من أحكام الشرع، وتقاعس فيها بعض ولاة الأمور من المسلمين عن الالتزام بالأحكام الخاصة بالمشاركة السياسية لأهل الذمة، فولوهم بعض الولايات والمناصب التي لا ينبغي أن يتولوها، وقد أثبت التاريخ والواقع ما تحدث عنه القرآن بما يكنه الكفار للمسلمين، وما تنطوي عليه أفئدتهم، بما لا يدع مجالا لمُشكك أو لمخذل، وفي هذا الواقع التاريخي بيان ورد على بعض المعاصرين الذين يحاولون التفرقة بين من ظهرت عداوته من أهل الذمة، وبين من ظهرت مودته أو لم تظهر منه عداوة، فيجعلون كل ما تقدم من الأدلة خاصا بمن ظهرت عداوته، ويرون أن من ظهرت مودته أو لم تظهر منه عداوة فإن الأدلة لا تتناوله. وذلك أن ما في القلوب لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة:٢٤-٢٦)، والأدلة المتقدمة ليس فيها هذا القيد الذي زعموه، وقد ذكر ابن القيم عشرين موضعا من كتاب الله تعالى في بيان غش اليهود والنصارى للمسلمين، وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الرب تعالى لمن أعزهم أو والاهم أو ولَّاهم أمور المسلمين، ثم قال بعدما أورد هذه المواضع العديدة: "والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية"(٥٩).

وهذه بعض الوقائع التاريخية من القديم ومن الحديث، ومن الشرق ومن الغرب، ومن اليهود ومن النصارى، بما يدل على أن ما يظهره أهل الذمة غير ما يبطنون، وقد تمثل ما قاموا به -سواء في القديم أو الحديث- عندما تولوا بعض الأمور، أو عند شعورهم بالقوة وأمنهم من معاقبة المسلمين لهم في أمرين: الأول: ظلمهم للمسلمين وإذلال من يقع منهم تحت أيديهم، والاستعانة بأهل ملتهم في أعمال الدولة وإبعاد المسلمين عنها، بل وفصلهم من وظائفهم، وقد بلغت مكانة اليهود في الدولة الفاطمية من العز والسؤدد الذي لم ينله كثير من المسلمين(٦٠).

وقد تسلط اليهود أيضا في دولة غرناطة على الناس وقاموا بحكم الجماعات الإسلامية وجمع الضرائب منهم مما دفع بابن الجد أن يقول:

تحكمت اليهود على الفروج.. وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأنذال فينا.. وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال هذا.. زمانك إن عزمت على الخروج.

وهذا أبو إسحاق الألبيري، وقد رأى ما ساد به اليهود على المسلمين، فيقول:

وإني احتللت بغرناطة... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها... فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها... وهم يخضمون وهم يقضمون
ورخم قردهم[٦١] داره... وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا... فإنا إلى ربنا راجعون[٦٢].

والثاني: تحريضهم للمشركين وأعداء المسلمين على غزوهم ومحاربتهم، وإيذائهم للمسلمين بكل سبيل، وإعانتهم للقوى الكافرة المهاجمة لبلاد المسلمين، وقد كان أول ذلك ما فعله اليهود زمن البعثة النبوية، فبرغم ما كان بين الرسول ﷺ وبينهم من معاهدات، فقد خانوا ونقضوها، وحرضوا المشركين على قتال المسلمين ولكن الله خذلهم. ومن ذلك ما فعله النصارى في الأندلس زمن دولة المرابطين عندما

حرضوا الطاغية ابن رذمير على محاربة المسلمين وقتالهم، وتوالت عليه كتبهم، وتواترت رسلهم ملحة بالاستدعاء، مطمعة في دخول غرناطة، فلما أبطأ عنهم وجهوا إليه زماماً يشتمل على اثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم، لم يَعُدُّوا فيها شيخاً ولا غراً"(٦٣).

وعندما أغارت جموع التتار على بلاد الشام ودخلوا دمشق استطال النصارى هناك على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم: فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب وصاروا يمرون به في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهراً: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو وهو كتبغا فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم"(٦٤).

ومن ذلك أيضا الحريق الكبير الذي شب في دمشق سنة سبعمائة وأربعين، وبعد خمسة عشر يوما شب حريق أعظم منه وكان أمرا مهولا، ثم تبين بعد ذلك أن من فعل ذلك هم مجموعة من النصارى الذين تستعملهم الدولة في أعمالها، وعلى رأسهم سلامة بن سليمان النصراني، كاتب الأمير علم الدين سنجر البشمقدار(٦٥).

وهكذا تثبت وقائع التاريخ المتعددة على اختلاف ما بينها من الزمان والمكان ما جاء في كتاب ربنا العليم الحكيم وهو مصداق لقوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} فقد بينت هذه الوقائع التي أوردناها ما ذكرته الآيات من كراهية الكفار للمسلمين وحقدهم عليهم وإرادة السوء بهم.

المطلب الخامس

وزراء وكتاب وأطباء يهود ونصارى في بلاط الخلفاء

١ - وزراء وكتاب وأطباء يهود في بلاط الخلفاء:

أولا: ابن كِلِّس (يعقوب بن يوسف) (٣١٨ - ٣٨٠هـ/٩٣٠-٩٩٠م)

هو أبو الفرج، يعقوب بن يوسف بن إبراهيم الملقب بـ «ابن كِلِّس» وزير من الكتاب والمشتغلين بالحساب في أول عهد الدولة الفاطمية في مصر. ولد في بغداد. وكان يهوديا ً يزعم أنه من أولاد هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، ثم سافر به أبوه في حداثته إلى الشام بعد أن تعلم الكتابة والحساب، فنزل الرَّملة في فلسطين، وهناك عمل بالتجارة والسمسرة، ولكنه لم يفلح وأضرَّ ببعض التجار، فهرب إلى مصر سنة ٣٣١هـ وأخذ يتاجر لكافور الإخشيدي ولبعض خواصه، فرأى كافور منه النزاهة وحسن الإدراك وقلة السعي إلى اكتساب المال، فاستحضر هو عهد إليه بعمارة داره، ثم سلمه زمام ديوانه الخاص بمصر والشام، وأمر أصحاب الدواوين سنة ٣٣٦هـ ألا يُصرف شيء من المال إلاَّ بتوقيع ابن كِلّس، فكان الحجَّاب والأشراف لهذه المكانة التي حظي بها عند كافور يقومون لهو يكرمونه، مما جعل نفسا بن كِلّس تتطلع إلى منصب الوزارة، فأعلن إسلامه في سنة ٣٥٦هـ ولزم الصلاة ودراسة القرآن، وانتدب شيخاً عارفاً بالتفسير والنحو والسِّير يلازمه في بيته ويصلي به ويقرأ عليه.

إلاّ أن وزير كافور جعفر بن الفرات كان يحسده على هذه المنزلة ويعاديه، فلما مات كافور سنة ٣٥٧هـ قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين، وفي جملتهم يعقوب بن كِلّس، فلم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه، فهرب مستخفياً إلى المغرب، وهناك لقي جوهر بن عبد الله الرومي المعروف بالصِّقلِّي مولى المعز العُبيدي وهو في طريقه لغزو مصر والقضاء على الدولة الإخشيدية، فرجع معه إلى مصر، وقيل إنه استمر على قصده، وانتهى إلى إفريقيا وتعلق بخدمة المعز العُبيدي، فلما ارتحل المعز إلى الديار لمصرية سنة ٣٦٢هـ واعتلى كرسي الخلافة فيها رافقه ابن كِلّس، وظل في خدمته.

وفي سنة ٣٦٣هـ، أسند المعز شؤون الدولة الحربية والمدنية إلى ابن كِلِّس، وجعل معاونه في ذلك عُسْلوج المغربي، كما أسند إليهما أيضاً مهمة الإشراف على الشرطتين: شرطة الفسطاط السفلى، وشرطة العسكر والقطائع العليا بعد أن كان أمرهما بيد جوهر الصقلِّي الذي أدرك المعز كثرة مشاغله فأعفاه منهما. وكذلك قلدهما مهمة الإشراف على شؤون البلاد المالية والخراج والحسبة والأوقاف وسائر الأعمال، وكتب لهما سجلاً بذلك قرئ على منبر جامع ابن طولون.

ولما كان الفاطميون في نظامهم المالي قد عملوا على التقليل من قيمة النقد الذي كان يُتداول في مصر، وعلى رفع قيمة النقود التي تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، فقد كان يعقوب ابن كلِّس وعسلوج بن الحسن لا يقبلان من الناس إلاّ الدنانير المغربية التي كانت أكبر من الدنانير التي تحمل أسماء العباسيين، فانحط الدينار العباسي إلى ثلثي قيمته، وخسر الناس بذلك أكثر أموالهم، كما وضعا نظاماً للضرائب أدى إلى ازدياد خراج مصر وانتعاش الأحوال المالية للدولة الفاطمية.

وبعد موت المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ تولى الخلافة ابنه العزيز بالله، فظل ابن كلِّس يلازمه ويعمل في خدمته حتى عيَّنه وزيراً سنة ٣٦٨هـ، ولقبه بالوزير الأجلِّ بعد أن استقال من هذا المنصب خصمه السابق جعفر بن الفرات حين شعر بضعف سلطته وتقلص نفوذه، ومع ذلك فقد تمتَّنت أواصر الود والصداقة بين الرجلين، حتى إن ابن الفرات كان يغدو ويروح إلى ابن كلِّس الذي ما فتئ يوليه ثقته ويعوِّل عليه في محاسبة العمال، ويجالسه ويدعوه إلى تناول الطعام معه بعد ما كان بينهما من تنافس وخلاف، وهكذا أصبح ابن كلِّس يكتب للعزيز كتبه ومراسلاته ويسعى إلى إدارة أمور الدولة الفاطمية بهمة عالية ومهارة فائقة. ولكن الغريب أن ابن كلِّس قد صُرف عن الوزارة في سنة ٣٧٣هـ، بعد أن نقم عليه العزيز لأسباب لم تفصح عنها كتب التاريخ والتراجم، واعتُقل في القصر ثمانية أشهر، ثم أُطلق سراحه بعدها وأعيدت إليه مقاليد الأمور من جديد، وأُغدقت عليه العطايا والهبات.

مات ابن كلِّس في القاهرة وصلى عليه العزيز بالله بعد أن كُفِّن وحُنِّط بما

بلغه عشرة آلاف دينار، وألحده في قبره بيده وانصرف حزيناً لفقده، ثم أمر أن تغلق الدواوين الحكومية عدة أيام بعد وفاته، كما زار الشعراء قبره آنئذ، ورثاه مئة شاعر، وكان ممن مدحه في حياته أبو الرَّقَعْمَق، أحمد بن محمد الأنطاكي بقوله:

لم يَدَعْ للعزيز في سائر الأرضِ عَدُواً إلاّ وأخمد نارَهْ   فلهذا اجْتباه دون سِواه واصطفاهُ لنَفْسه واختارَهْ.

حظي ابن كِلّس من المؤرخين بالتقدير والإعجاب؛ لاتساع جهوده في ميادين العلم والإدارة، وإلى ما كان عليه من ذكاء وقاد وجَلَد على العمل وتشجيع للعلوم والفنون، فقد كان يعقد في قصره مجلساً يحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من الأئمة ووجوه الدولة، إضافة إلى فئة من الكتاب ينسخون القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب والطب، ويشكلون المصاحف وينقطونها، ثم تمد الموائد العامرة بالأطعمة لهم ولحاشيته وأتباعه ولمن يدخل عليه من الغرباء. وكان يجلس كل يوم عقب صلاة الصبح ويستعرض شكاوى العامة، وما يرفعونه إليه من الحوائج والظُّلامات.

ومن مآثره أنه في سنة ٣٧٨هـ أشار على الخليفة العزيز بتحويل الجامع الأزهر إلى جامعة تُدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية. وقد أنشأ في قصره مستشفى يضم عدداً كافياً من الأطباء، يقومون بفحص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التي تقدم إليهم من دون ثمن.

ومع ذلك فإن بعض المصادر التاريخية وصفته بأنه كان عجباً في الدهاء والفطنة والمكر، وأنه لم يكن يتورع عن دس السم لأعدائه بغية التخلص منهم، وأنه قام بتحصين داره ودور غلمانه بالدروع والحرس والعُدَد والسلاح.

وعلى الرغم من كل هذه الأعباء فقد ألف ابن كلس كتاب «الرسالة الوزيرية» في الفقه الإسماعيلي أودع فيه جُل ما سمعه ووعاه من المعز وابنه العزيز من أحكام هذا المذهب وأصوله، فكان على القضاة أن يتخذوه مرجعاً في محاكمهم التي كانت تعقد في المساجد[٦٦].

ثانياً: فرات بن شحناتا:

وهو من أشهر الأطباء اليهود الذين عاشوا في العراق في ظل الدولة الأموية والعباسية، فقد عاش في زمن الحجاج فترة صباه، كتلميذ للطبيب المشهور آنذاك (تياذوق) وكان هذا طبيب الحجاج الخاص، وكان فرات من أنجب التلاميذ ومقدم دوماً عند (تياذوق) من بين التلاميذ.

ظل فرات في زمن المنصور، لقدرته الطبية والعقلية ملازم لأستاذه (تياذوق) عند الحكام العباسيين، مما جعله طبيباً حاذقاً خص خدمته بولي عهد الخليفة المنصور عيسى بن موسى ولي العهد، (والذي عاش خمسا وستين سنة، وكان فارس بني العباس وسيفهم المسلول جعله السفاح ولي عهد المؤمنين بعد المنصور وهو الذي انتدب لحرب ابني عبد الله بن حسن فظفر بهما وقتلا وتوطدت الدولة العباسية به وقد تحيل عليه المنصور بكل ممكن حتى أخره وقدم في العهد عليه المهدي فيقال بذل له بعد الرغبة والرهبة عشرة آلاف ألف درهم توفي سنة ثمان وستين ومائة بالكوفة،وله أولاد وأموال وحشمة وشأن)، وكان فرات يشغل إضافة إلى عمله الطبي عمله السياسي كمستشار، لبراعته بالسياسة وشؤون الحكم، فقد كان مستشار ولي العهد في كل شيء وهو من تنبأ وأشار عليه بالتنازل عن ولاية العهد إلى ابن المنصور المهدي ومن ثم إلى ابن المهدي الهادي في حال طلب منه ذلك، وبالفعل تم ذلك بعد موت الطبيب فرات، مما دعا عيسى إلى مقولته المشهورة: (قاتلك اللّه يا فرات، ما كان أجود رأيك، وأعلمك بما تتفوه به، كأنك كنت شاهداً ليومنا هذا)[٦٧]

٢-وزراء وأطباء وكتّاب نصارى في بلاط الخلفاء:

لقد أدرك أنصارى كما أدرك غيرهم خلق التسامح الذي عرف به الإسلام، وقد كان هذا الأمر حافزاً للنصارى ولغيرهم ليتقلدوا زمام الأمور في كثير من الأوقات، حتى أنه وصل بهم الأمر وباليهود أيضا: أن يستغلوا سماحة الإسلام، وسذاجة أهله أحياناً فيذلوا رعايا الدولة الإسلامية التي احتضنتهم في صدرها،

وضمتهم في حناياها، وأولتهم عطفها وحنانها.

وتشهد كتب التاريخ أنه معاوية t اتخذ كاتباً نصرانياً اسمه سـرجون، وأن أبا عبيدة t اتخذ أيضا كاتباً نصرانياً، ولكن عمر t نهى عن ذلك. وقد استخدم معاوية t النصارى في مصالح الدولة، وقرّب النابهين منهم، وعهد بالإدارة المالية إلى أسرة نصرانية، ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة وهي أسرة سـرجون بـن منصور. وأبقى في دواوين الشام الكتاب من النصارى من أهـل الـبلاد لكثـرتهم يكتبون باليونانية، كما اختار معاوية الطبيب النصراني "ابن أثـال" ليكـون طبيبـه الخاص، وكتب "ابن بطريق" وهو رجل من أهل فلسطين لسليمان بن عبـد الملـك، وكتب "تاذري بن أسطين" لهشام بن عبد الملك.

في الخلافة الأموية:

١- كان لمعاوية طبيبان نصرانيان :الأول: ابن أثال وكان خبيراً بالسمو، الثاني: أبو الحكم الدمشقي وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية والطب .

٢- حكم الدمشقي وهو ابن أبي الحكم السابق وكان من أطباء الدولة الأموية.

٣- عيسى بن حكم الدمشقي وقد عمر حتى جاوز المائة.

٤- تياذدق وكان الطبيب الخاص للحجاج.

٥- عبد الملك بن أبجر الكناني وكان طبيباً لعمر بن عبد العزيز عندما كـان أبـوه والياً على مصر وقد أقنعه عمر بالإسلام فأسلم.

٦- وريجوس بن جبرائيل بن نجتيشوع، وقد استدعاه المنصور فداوى المنصور من مرض أصاب معدته، فجعله طبيباً له ولأسرته، وكان المنصور يقول له: اتـق الله وأسلم أضمن لك الجنة. فلم يُسْلِم.

٧- نجتيشوع بن جورجيوس. وقد خلف أباه في الطب، وجعله هارون الرشيد طبيبه الخاص.

٨- يوحنا بن نجتيشوع وكان طبيباً للخليفة العباسي الموفق بالله.

٩- نجتيشوع بن يوحنا وكان طبيباً خاصاً للراضي بن المقتدر، كما اشتهرت كـذلك

عائلة "ماسويه" ومنهم: ماسويه الخوري "يوحنا بن ماسويه"، وكان من المقربين من الخليفة الواثق، عيسى أبو قريش النصراني. (٦٨)

وبرز من النصارى شعراء فحول فقربهم الخلفاء، ومنهم: الأخطل التغلبي، والذي يعد شاعر بني أمية، قال عنه عبد الملك بن مروان: إن لكل قوم شاعراً، وإن شاعر بني أمية الأخطل، ومنهم أيضاً "أعشى بن ربيعة" و "مرقص الطائي" و "نابغة بن شيبا"، ولقد اعترف المؤرخون من غير المسلمين بذلك يقول "أرنولد": لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ النصارى في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بعداً تاماً عن الاضطهاد الديني.

ويقول "ول ديورانت": لقد كان أهل الذمة النصارى والزرادشتيون واليهود والصابئون، يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا تجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، وذكر "توماس أرنولد" أسماء بعض الوزراء والولاة النصارى في الدويلات الإسلامية، وأسماء الأطباء المقربين من الخلفاء، ثم قال: إن النصارى أحرزوا ثروات، وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور الإسلام الأولى بفضل ما كفل الإسلام لهم من حرية الحياة والملك والعقيدة، حتى كان منهم أصحاب النفوذ العظيم في قصور الخلفاء(٦٩).

أسرة بختيشوع وتطبيب الخلفاء:

لم يخل تاريخ الدولة العباسية من نماذج على تولى أهل الكتاب مناصب رفيعة في الدولة، فلم تقف عقيدتهم حائلا بينهم وبين الترقي، في ظل دولة تقوم على السماحة واحترام التعددية، وتضع الكفاءة عاملا أساسيا لاختيار رجالها أيا كانت درجة اختلافها معهم، ولعل أسرة بختيشوع كانت من أبرز الأمثلة على ذلك، وعنها يحدثنا الدكتور عبد الرحمن أحمد سالم أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة قائلاً: هي أسرة مسيحية سريانية، كانت تعيش في مدينة جنديسابور في إقليم فارس، وقد برعت في مهنة الطب، وتبوأت مكانة رفيعة لدى

الخلفاء العباسيين، وأول من اتصل من هذه الأسرة بالعباسيين هو جرجيس بن بختيشوع، رئيس أطباء جنديسابور؛ فقد استدعاه الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور إلى بلاطه عام ١٤٨هـ بعد أن بنى مدينة بغداد، وكان يعانى من بعض المتاعب الصحية، تولى جرجيس علاجه حتى شفى تماما، فارتفعت منزلته لدى الخليفة، وكان جرجيس يتحلى بالعفة وسمو الخلق، فزاده ذلك عند المنصور مكانة على مكانته، وكان تعامله معه يتسم بالسماحة البالغة؛ فقال له يوما: "يا جرجيس اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة" فرد عليه: "رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار"، فضحك المنصور من قوله، وجاء بعد جرجيس ابنه بختيشوع الذي لمع نجمه في عهد الخليفة المهدي بن المنصور، ثم في عهد ابنه هارون الرشيد الذي عينه رئيس أطباء البلاط، وكان جبرائيل بن بختيشوع هو ألمع نجوم أسرة بختيشوع الطبية دون منازع، وهو حفيد جرجيس طبيب المنصور، وقد عمل جبرائيل في بلاط الرشيد منذ عام ١٧٥هـ، وكانت له مكانة خاصة عنده، حتى قال يوما لأصحابه: "كل من كانت له حاجة عندي فليخاطب فيها جبرائيل، لأني أفعل كل ما يطلبه منى"، ولم تقف ديانة جبرائيل حائلاً بينه وبين هذه المكانة المتميزة في بلاط الرشيد، واستمر يحظى بنفس المكانة في بلاط الأمين والمأمون حتى توفى في خلافة المأمون، فحل ابنه بختيشوع بن جبرائيل محله في البلاط العباسي حتى توفى عام ٢٥٦هـ في خلافة المهتدى بالله(٧٠).

جورجس بن جبرائيل:

كانت له خبرة بصناعة الطب، ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج، وخدم بصناعة الطب المنصور، وكان حظياً عنده رفيع المنزلة، ونال من جهته أموالاً جزيلة، وقد نقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربية، ولجورجس من الكتب كنّاشه المشهور، ونقله حنين بن إسحاق من السريانية إلى العربية.

بختيشوع بن جورجس:

ومعناها عبد المسيح؛ لأن في اللغة السريانية البخت العبد، ويشوع عيسى

عليه السلام، وكان بختيشوع يلحق بأبيه في معرفته بـصناعة الطـب ومزاولتـه لأعمالها، وخدم هارون الرشيد وتميَّز في أيامه، ولبختيشوع بـن جـورجس مـن الكتب: كناش مختصر، كتاب التذكرة ألفه لابنه جبرائيل.

جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس:

كان مشهوراً بالفضل جيد التصرف في المداواة، عالي الهمة، سـعيد الجـد، حظياً عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، كثيري الإحسان إليه، وحصل من جهـتهم من الأموال، ما لم يحصله غيره من الأطباء. ومن كلام جبرائيل بن بختيشوع قال: أربعة تهدم العمر: إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام، والشرب على الريـق، ونكاح العجوز، والتمتع في الحمام.

ولجبرائيل بن بختيشوع من الكتب: رسـالة إلـى المـأمون فـي المطعـم والمشرب، كتاب المدخل إلى صناعة المنطق، كتاب في الباه، رسالة مختصرة فـي الطب: كتاب في صنعة البخور، ألّفه لعبد الله المأمون.

بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع:

كان سريانياً نبيل القدر، وبلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال، مـا لـم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره، وكان يـضاهي المتوكـل فـي اللباس والفرش ونقل حنين بن إسحاق لبختيشوع بن جبرائيل كتباً كثيرة مـن كتـب جالينوس إلى اللغة السريانية والعربية، ولبختيشوع بن جبرائيل من الكتـب: كتـاب في الحجامة على طريق المسألة والجواب.

جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع:

كان فاضلاً عالماً متقناً لصناعة الطب، جيدا في أعمالها، حسن الدراية لهـا، وله تصانيف جليلة في صناعة الطب، وكانت أجداده في هذه الصناعة كـلّ مـنهم أوْحَد زمانه وعلاّمة وقته ولجبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع رسالة فـي عـصب العين، ومقالة في ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغـذاء وآلات التنفس المسمى ذيافرغما، ألّفها لخسرو شاه بن مبادر ملك الديلم، مقالة فـي

أن أفضل استقسات البدن هو الدم، ألّفها للصاحب بن عباد، كتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة، مقالة في الرد على اليهود، مقالة في أنّه لم يجعل من الخمر قربان وأصله محرم.

عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس بن جبرائيل:

كان فاضلاً في صناعة الطب، مشهوراً بجودة الأعمال فيها، متقناً لأصولها وفروعها، من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها، وكان جيد المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة بصناعة الطب، وله تصانيف كثيرة فيها، وأقام بميارفاقين، وكان معاصرا لابن بطلان، ويجتمع به ويأنس إليه وبينهما صحبة وتوفي عبيد الله بن جبرائيل في شهور سنة نيف وخمسين وأربعمائة.

ولعبيد الله بن جبرائيل من الكتب: مقالة في الاختلاف بين الألبان (٤٤٧هـ) وكتاب مناقب الأطباء، ذكر فيه شيئا من أحوالهم ومآثرهم (٤٢٣هـ)، وكتاب الروضة الطبية، كتاب التواصل إلى حفظ التناسل(٤٤١هـ) ورسالة في الطهارة ووجوبها، ورسالة في بيان وجوب حركة النفس، وكتاب نوادر المسائل مقتضبة من علم الأوائل في الطب، وكتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر، كتاب الخاص في علم الخواص، كتاب طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها.

عيسى المعروف بأبي قريش:

قال إسحاق بن علي الرهاوي في كتاب أدب الطبيب عنه قال: أخبرني يوحنا بن ماسويه أن أبا قريش كان صيدلانياً يجلس على موضع نحو باب قصر الخليفة، وكان ديناً صالحاً في نفسه، وكان صيدلانياً في بلاط هارون الرشيد.

عبد الله الطيفوري:

كان حسن العقل، طيب الحديث على لكنة سوادية كانت في لسانه شديدة، لأن مولده كان في بعض قرى كسكر، كان من أحظى خلق الله عند الهادي.

زكريا بن الطيفوري:

كان يعمل صيدلانياً وطبيبًا لدى الخليفة المأمون.

إسرائيل بن زكريا الطيفوري:

متطبّب الفتح بن خاقان كان مقدّماً في صناعة الطب، جليلَ القـــدر عنـد الخلفاء والملوك، كثيري الاحترام له، وكان مختصاً بخدمة الفتح بن خاقان بصناعة الطب وله منه الجامكية الكثيرة والأنعام الوافرة، وكان المتوكل بالله يرى له كثيــراً ويعتمد عليه، وله عند المتوكل المنزلة المكينة، ومن ذلك مما حكاه إسحاق بن علي الرهاوي في كتاب أدب الطبيب، أنَّ إسرائيل بن زكريا بن الطيفوري وجـد علـى أمير المؤمنين المتوكل لما احتجم بغير إذنه، فافتدى غـضبه بثلاثـة آلاف دينـار وضيعة تغلُّ له في السنة خمسين ألف درهم، وهبها له وسجّل له عليها.

يزيد بن زيد بن يوحنا بن أبي خالد (يزيد بور):

متطبب المأمون كان جيد العلم، حسن المعالجة موصوفاً بالفضل، وكان قـد خدم المأمون بصناعة الطب، وخدم أيضا إبراهيم بن المهدي وكان له منه الإحسان الكثير والإنعام الغزير، والعناية البالغة والجامكية الوافرة.

سهل الكوسج:

كان سهل الكوسج، أبو سابور بن سهل صاحب الأقراباذين المشهور من أهل الأهواز، وإنما لقب بالكوسج على سبيل التضاد، وكان عالماً في الطب، إلاّ أنّه دون ابنه في العلم، وكانت في لسانه لكنة خوزيّة، وكان كثير الهزل فغلب هزله جده.

سابور بن سهل:

كان ملازماً لبيمارستان جنديسابور ومعالجة المرضى به، وكان فاضلاً عالماً بقوى الأدوية المفردة وتركيبها، وتقدّم عند المتوكل، وكان يرى له، وكذلك عند من تولى بعده من الخلفاء، وتوفي في أيام المهتدي بالله، وكانت وفاة سابور بـن سـهل في يوم الاثنين من ذي الحجة سنة ٢٥٥هـ.

ولسابور بن سهل من الكتب: كتاب الأقراباذين الكبير المشهور، جعله سـبعة عشر باباً، وهو الذي كان من المعمول عليه في البيمارستان ودكـاكين الـصيادلة، وخصوصا قبل ظهور الأقراباذين الذي ألّفه أمين الدولة بن التلميـذ، كتـاب قـوى

الأطعمة ومضارها ومنافعها، كتاب الرد على حنين في كتابه في الفرق بين الغذاء والدواء المسهل، القول في النوم واليقظة، كتاب إبدال الأدوية.

إسرائيل بن سهل:

كان متقدمًا في صناعة الطب، حسن العلاج خبيرًا بتركيب الأدوية، وله كتاب مشهور في الترياق، وقد أجاد عمله وبالغ في تأليفه، موسى بن إسرائيل الكوفي متطبب إبراهيم بن المهدي، قال يوسف بن إبراهيم: كان موسى هذا قليل العلم بالطب إذا قيس إلى من هو في دهره من مشايخ المتطببين، إلا أنه كان أملأ لمجلسه منهم بخصال اجتمعت فيه، منها: فصاحة اللهجة، ومعرفة بالنجوم، وعلم بأيام الناس، ورواية الأشعار، وكان مولده فيما ذكر لي سنة تسع وعشرين ومائة، ووفاته في سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

ماسرجويه متطبّب البصرة:

وهو الذي نقل كتاب أهرن من السرياني إلى العربي، وكان يهودي المذهب سريانياً، وهو الذي يعنيه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتابه الحاوي بقوله قال اليهودي، ولماسرجويه من الكتب: كناش، كتاب في الغذاء، كتاب في العين.

وقد صرح الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" بجواز تقليد الذمي "وزارة التنفيذ"، ووزير التنفيذ هو الذي يبلغ أوامر الإمام، وهذا بخلاف وزارة التفويض، وقد تمرغ عدد غير قليل منهم في بلاط الخلفاء، ويذكر الدكتور الخربوطلي في كتابه أهل الذمة ما يلي: "اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء مثل "جرجس بن نجتيشوع"، طبيب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد وثق فيه الخليفة وأكرمه، ومن هؤلاء "جبرائيل بن نختيشوع" طبيب هارون الرشيد، ولما مرض "سلمويه" بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جرياً على عادة النصارى، وامتنع المعتصم يوم موته عن الأكل. أما "يوحنا بن ماسويه" فقد خدم الخلفاء العباسين منذ "الرشيد" إلى "المتوكل"، وكان لا يغيب قط عن طعامهم،فكانوا

لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثم لم يكن هناك أدنى كلفةبينه وبين الخليفة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين(٧١).

مشاهير النصارى في عهد الدولة الفاطمية:

تقلد كثير من النصارى في عهد الدولة الفاطمية الوظائف العليا في دواوين الحكومة، لأسباب سبق الإشارة إليه سابقاً، امتاز النصارى أيضاً بوضعهم نظم حسابية دقيقة لأعمال الدواوين وكذلك لأعمال المساحة، ساعدهم على الاستمرار في أعمالهم إتقانهم للغة العربية. لذا نجد بين النصارى عددا من المشاهير كل في مجاله، من هؤلاء:

١- المعلم سرور الجلال: كان ضامناً (ملتزماً) فترة خلافة المستنصر، غنياً، وجد حظوة في عيني الخليفة ونال ثقته، وكان ذو علاقات طيبة مع الأقباط والمسلمين.

٢- السعيد أبو الفخر (ابن صاعد) كان كاتب الرواتب في خلافة الحافظ، ثم ترقى فأصبح رئيس مجلس الرواتب، ولما مات تولى ابنه سعيد شديد الملك وظيفة أبيه.

٣- الأسعد أبو الخير جرجة بن أبي وهب: هو جرجة بن أبي وهب الشهير بابن الميقاط، وهو رأس عائلة اشتهر أمرها فيما بعد، منها الفتوح بن الميقاط، الذي ترأس ديوان الجيوش في أيام الملك العادل، وكان من أكابر النصارى وأثريائهم في زمن الخليفة العاضد، ادعى عليه شاور أنه يتخابر مع جنود الفرنجة سراً، فسجنه وعذبه حتى مات. تعرض له الوزير شاور الذي أحرق مصر القديمة، وادعى عليه بأن له علاقة بعساكر الصليبيين، وأنه يخابرهم سرًا، فقبض عليه وعذبه حتى مات.

٤- أبو سعد منصور بن أبي اليمن: كان كاتباً بليغاً، تولى الوزارة لفترة في أيام الخليفة المستنصر، ولكنه تنازل عنها بعد فترة وجيزة، حين أدرك خواء الخزينة، ومطالبة الجنود برواتبهم.

٥- صفي الدولة بن أبي ياسر بن علوان الكاتب، كان ملكاني، شيد كنيسة باسم أجيا صوفية بالقرب من أهرامات الجيزة، ولكنها اندثرت.

٦- الأحزم: كان كاتب ديوان النظر، وهو ديوان المراجعة على دواوين الأموال،

وكان لمن يتولى هذا الديوان حق الولاية والعزل (من رجال القرن الحادي عشر).

٧- الأسعد صليب بن ميخائيل: كان عالماً، محباً للعلم والعلماء، أعاد تجديد دير مار مينا بالفسطاط مدرسة ومكتبة، وله رسالة في أسرار الكنيسة (مخطوط بخط يده) في مكتبة بلننجراد بروسيا(٧٢).

المطلب السادس
نماذج من خيانات غير المسلمين للخلفاء

١ - سرجون بن منصور الرومي:

كان من أصلٍ نصراني، كما نصَّ على ذلك ابن عساكر في كتابه تاريخ مدينة دمشق، وقال: إنه كان كاتبًا لمعاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان. وقال الطبري في تاريخه إنَّ سرجون بن منصور الرومي كان كاتبًا لمعاوية وصاحب أمره، وأفاد ابنُ كثير في كتاب البداية والنهاية أنَّ يزيد كان يستشيره، وذلك يُعبِّر عن حظوته وعلوِّ موقعه في مجلس القرار الأموي. وقد استشاره يزيد في أمر الكوفة، بعد أنْ تواترت عليه الكتب من أنصاره بالكوفة تُخبره بقدوم مسلم بن عقيل مُرسَلاً من الحسين t ، وأنَّ كثيرًا من الناس قد بايعوه وأنَّ النعمان بن بشير الوالي من قِبل يزيد على الكوفة ضعيف أو يَتضاعف، وأنَّ الكوفة يمكن أنَّ تسقط إذا لم يبعث إليها واليًا قويًا.

بعد أنْ بلغت يزيدًا الكتب المشتملة على هذه المضامين، استشار سرجون فيمن يولِّي على الكوفة فيكون جديرًا بحماية السلطة الأموية في الكوفة، فأشار عليه بتولية عبيد الله بن زياد، وكان حينها والياً على البصرة، وكان يزيد واجداً على عبيد الله بن زياد، إلا أنَّ سرجون أشار عليه بتجاوز هذا الغيظ وتوليته على الكوفة مضافًا إلى البصرة، فأَنفَذَ يزيدُ بن معاوية مشورته، وعَمِل بمقتضاها، ووقع ما كان من الفتن والمحن التي ما زالت الأمة الإسلامية تعاني من ويلاتها إلى الآن.

٢ - يوحنا الدمشقي:

ولد باسم يوحنا منصور بن سرجون عام ٦٧٦م في دمشق خلال حكم الدولة الأموية، من عائلة مسيحية نافذة، إذ كان والده يعمل وزيرًا في بلاط الخلافة

الأموية، وكذلك كان يعمل جده رئيسًا لديوان الجباية المالية فيها، وقد شغل يوحنا الدمشقي نفسه هذه الوظيفة فترة من الزمن، ومن ثم دخل إلى دير القديس سابا قرب القدس في فلسطين، وتميز بمؤلفاته اللاهوتية الفلسفية العديدة، ودفاعه الشديد عن العقائد المسيحية، ورده على الهرطقات المختلفة، ويعتبر يوحنا الدمشقي آخر آباء الكنيسة الشرقية بإجماع الباحثين، وقد شكلت مؤلفاته مرجعًا مهما لجميع لاهوتي القرون الوسطى، كما ألف عددًا من الترانيم الكنسية التي لا تزال مستعملة في طقوس الكنيسة البيزنطية حتى اليوم.

حياته: المؤلف الأكثر شيوعًا بين الباحثين عند الحديث عن يوحنا الدمشقي، هو سيرة حياته للراهب يوحنا الأورشليمي، والتي كتبها بناءً على طلب بطريرك القدس، وقد ذكر أيضًا في كتابات الأصفهاني وابن العبري وغيرهم من المؤرخين العرب.

الخلفية العائلية: ولد يوحنا الدمشقي في عائلة مسيحية بارزة في المجتمع الدمشقي خلال القرن السابع، كان جده مسئولا عن ضرائب دمشق خلال حكم الإمبراطور هرقل، وعندما دخلت المنطقة تحت ظل الدولة الأموية أواخر القرن السابع، استمرت عائلته بالعمل في بلاط الخلفاء الأمويين، وأصبح جده ومن ثم والده مسئولا عن الضرائب في منطقة الشرق الأوسط برمتها؛ وبعد وفاة والده تابع يوحنا ذات المهنة، ومن ثم تركها واتجه إلى فلسطين حيث ترهب في دير القديس سابا، الذي سبقه إليه أخوه الأصغر قوزما، وكان له من العمر حوالي الثلاثين عامًا، وهناك اتخذ لنفسه اسم يوحنا كاسم رهباني، تيمنًا بأستاذه البطريرك يوحنا الرابع (٧٣٤-٧٠٦)، بعد أن كان اسمه قبل الرهبنة منصور بن سرجون، وأصبح كاهنًا سنة ٧٣٥م، ويختلف المختصون حول أصل يوحنا الدمشقي، فبينما يرى البعض أنه يعود إلى قبيلة مسيحية عربية قد تكون إما تغلب أو كلب، يرى آخرون أنه كان من السريان الملكيين.

التعليم: تلقى يوحنا الدمشقي تربية وثقافة عالية، ويبدو أنه درس أيضًا

التعليم الإسلامي التقليدي، وسيرة حياته تذكر أنه بناءً على رغبة والده لم يكتف بالشائع في الثقافة العربية آنذاك، بل اتجه نحو الإغريق، فاكتسب ثقافة يونانية، والمعلم الذي أشرف على تلقينه العلوم هو الراهب قوزما، الذي سباه العرب من جزيرة صقلية، لكن والد يوحنا الدمشقي اشتراه لقاء مبلغ كبير، ومن ثم جعله معلمًا لابنه، فدرسه علوم الفلك والموسيقى واللاهوت إلى جانب الحساب والهندسة بشكل خاص كل من فيثاغورس وإقليدس.

أيامه الأخيرة: توفي يوحنا الدمشقي في ٤ ديسمبر ٧٤٩ في دير مار سابا، بعد حياة رهبانية نسكية طويلة، ودفن في الدير، وظل جثمانه في الدير معروفًا ومكرمًا من قبل النصارى حتى القرن الثاني عشر، حيث نقل إلى القسطنطينية.

علاقته بالإسلام: اعتبر يوحنا الدمشقي في كتابه (الهراطقة) الإسلام نوعًا من المسيحية المهرطقة، وفي الكتاب المذكور، سرد الدمشقي قائمة مائة هرطقة ظهرت بين القرنين الأول والسابع، ونال الإسلام الترتيب مئة في تصنيف الدمشقي. يقول يوحنا الدمشقي بأن الراهب بحيرى قام بمساعدة النبي محمد، وكذلك فعل ورقة بن نوفل الذي كان قس النصارى العرب في مكة، حسب رواية الدمشقي فإن ورقة كان يعمل مترجمًا لبعض المؤلفات المسيحية التي كانت توضع غالبًا إما باللغة السريانية أو القبطية إلى اللغة العربية، ومن ضمنها بعض الأناجيل المنتحلة، وهذا ما يفسر حسب رأيه سبب التشابه بين القرآن وعدد من القصص الواردة في العهد الجديد أو الأناجيل المنتحلة.

الباحثون الذين فندوا رواية الدمشقي، أشار بعضهم إلى أن الراهب بحيرى من المفترض أن لا يكون متكلمًا للغة العربية، وذهب البعض للتكشيك بتاريخية وجوده أصلاً، كذلك الحال مع ورقة بن نوفل حيث لم يرد في الحديث أن النبي محمد e قد التقاه. عملية الأخذ والرد بين مؤيدي نظرة الدمشقي ومعارضيه لا تزال حتى اليوم، من خلال مؤلفات النقد والنقد المقابل، وما يعيقها فعليًا فقدان عدد كبير من الوثائق القديمة المتعلقة ببداية الإسلام، خصوصًا إثر حريق المكتبة

المكية في بداية القرن العشرين.(٧٣)

يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون) ودوره في الاستشراق:

إن الحديث عن بداية الاستشراق والدراسات الاستشراقية، التي لم يحسم القول فيها حتى الآن، وإن كنا نتفق مع من يرى عودها إلى بداية ظهور الإسلام، واحتكاكه بالعالم المسيحي الذي بدأ أولا في ساحات القتال كما أشرنا من قبل.

وقد بدأ الاستشراق في الشرق قبل أن يبدأ في الغرب، وعلى أيدي رجال اللاهوت المسيحي في الكنائس والأديرة، فالقديس يوحنا الدمشقي (٨٠- ١٣٧هـ/ ٧٠٠- ٧٥٥م) الذي كان واحدا من كبار رجال الكنيسة في الشام، وكان قريبا من البلاط الأموي، إلا أنه كان شديد البغض للإسلام والمسلمين، ولعله أول من بدأ في التشكيك في الإسلام، وهز صورة النبي e والإساءة إليه، فقد لقن أنصاره قصصا وأخبارا ملفقة ومزورة عن النبي e، وروجوها على نطاق واسع حتى وجدت طريقها إلى كتب التفسير، وبصفة خاصة زواج النبي e من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد أن طلقها زيد بن حارثة t، فقد زعموا -زورا وبهتانا- أن هذا الزواج كان وراءه قصة عشق بين النبي e وبين زينب. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ [الكهف: ٥].

وهذه الفرية التي ابتدعها ولفقها ذلك النصراني الحاقد راجت للأسف الشديد، وقبلها مفسر كبير كابن جرير الطبري، وتناقلها عنه غيره، فكانت أعظم فرية افتريت على رسول الله e، وتجافي تماما خلقه، وما طبع عليه من الطهر والعفة، ولم يثبت في الصحاح شيء من هذا، ولم ينقل عن أحد من الصحابة بطريق مقبول، وهذا الذي لفقه يوحنا الدمشقي صورة مصغرة من تلفيقات رجال اللاهوت المسيحي، لتقويض أسس العقيدة الإسلامية، فالسلطات الكنسية شرعت منذ وقت مبكر، تهاجم -بالجدل والمناظرات- أسس العقيدة الإسلامية بأسلحة فكرية، عن طريق انتشار الثقافات، بما تحمله من الدس والشبهات، والثقافات في الحقيقة تغزو المجتمعات، وقد يكون غزوها أشد فتكا من غزو الجيوش العسكرية.

يقول المستشرق الفرنسي ألفريد غيوم في مقال له بعنوان "الفلسفة وعلم الكلام": "وبمرور الزمن أسلم الكثير من اليهود والنصارى، تخلصا من الجزية التي كانت تجبى من الموحدين، من أهل الكتاب من غير المسلمين، فهؤلاء الذين دخلوا كنف الدين الإسلامي حملوا معهم ثقافة الإمبراطورية البيزنطية، وثقافة اليونان، وهذه الانشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنسية، فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية". ثم يستطرد قائلا: "فالقديس يوحنا الدمشقي كان يستطيع أثناء مناظراته، إفحام مناظريه المسلمين ببراهين ثابتة مطواعة.. كان يوحنا وأمثاله يجادلون بحرارة شديدة، ويستدلون بالإسرائيليات، فإذا وجدوا الفرصة سانحة دسوا ما يريدون دسه على المسلمين، وربما اتخذوا من الروايات الإسرائيلية التي تقول: إن داود عليه السلام أحب زوجة قائده أوريا، وإنه عمل على التخلص منه حتى قتل، فتزوجها داود بعده، ربما عملوا مقارنات ومعادلات بينها وبين ما زعموه في قصة زواج النبي e من زينب"(٧٤).

هذا الذي لفقه وزوره يوحنا الدمشقي؛ الذي يوصف بالقديس، عن النبي e في زواجه من زينب بنت جحش قد يظنه بعض الناس أمرا هينا، ولكنه عند الله عظيم، فهو تشويه لصورة النبي e، الذي يعد المثل الأعلى لكل مسلم، وإذا شوهت صورة النبي المعصوم e، فماذا يبقى للمسلمين من قيم وأخلاق؟!.

ويوحنا الدمشقي، الذي يمثل بواكير الاستشراق الكنسي الحاقد على الإسلام ورسوله ورسالته وحضارته، والذي نشأ في الشام، في كنف الدولة الأموية، ومع ذلك نجح في بث سموم أفكاره، حتى عرفت طريقها لكتب تفسير القرآن الكريم. ويعاصر يوحنا الدمشقي ويماثله في الحقد على الإسلام، رجل لاهوت مسيحي آخر عاش في مصر، وهو حنا النقيوسي وقد يقول قائل: إن هذين الرجلين وأمثالهما لا يعدون مستشرقين؛ لأنهم أصلا من الشرق، والمستشرق في عرف الناس هو رجل غربي يهتم بالدراسات الشرقية، وهذا القول ليس صحيحا؛ لأن الشرق والاستشراق في رأينا مفهوم حضاري أكثر منه مفهوم جغرافي، وقد قلنا: إن الأندلس تعتبر

شرقية حضاريّا، وإن كانت غربية جغرافيّا. وبهذا المفهوم فإننا نعد كل من يهاجم الإسلام ويطعن في أسس عقائده، ويغمز ويلمز، فهو مستشرق مهما كان موطنه.

وليوحنا الدمشقي، وحنا النقيوسي اللذين عاشا في أواخر القرن الأول وبداية الثاني الهجري امتداد حتى الوقت الحاضر، فرجال مثل: عزيز عطية سوريال، وهو مصري مسيحي، كان أستاذا بجامعة الإسكندرية، ثم ذهب ليدرس في إحدى الجامعات الأمريكية، وهو شديد الحقد على الإسلام في كتاباته، ومثل بطرس عبد الملك، وهو الآخر مصري مسيحي، كان أستاذا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم هاجر إلى أمريكا، واشتغل بالتدريس في جامعة برنستون، ومثل فيليب متى وهو لبناني مسيحي، هاجر إلى أمريكا، وحصل على الجنسية الأمريكية، وعمل بالتدريس في قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون، وله العديد من المؤلفات عن تاريخ العرب والإسلام، وغير هؤلاء كثير، وكلهم رغم انضمامهم جغرافيّا إلى الشرق، فإنهم -بمناصبتهم الإسلام العداء- يعدون في نظرنا مستشرقين، وامتدادا ليوحنا الدمشقي، وحنا النقيوسي.

تطور الحركة الاستشراقية:

هذه الحركة أو هذه الظاهرة الاستشراقية التي بدأت منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري، على يد القديسين يوحنا الدمشقي وحنا النقيوسي وأمثالهما، بدأت تتسع ويمتد نطاقها مع اتساع الفتوحات الإسلامية، وامتدادها إلى أوربا عن طريق الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، ويمثل هذا التطور مكانا بارزا في تاريخ الاستشراق؛ لأن أوربا بعد أن وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، وبعد أن بدأت الحضارة الإسلامية في الازدهار في تلك المراكز الأوربية، بدأت ترقب عن كثب ما يجري في قرطبة وطليطلة وأشبيلية وغيرها من المدن الإسبانية، فقررت الاستفادة من الحضارة الإسلامية، وهذا تطور كبير في حركة الاستشراق، وبداية التخلص شيئا فشيئا من قيود التعصب الكنسي، فقد وجد كثير من الأوربيين أن الحضارة الإسلامية بدأت تتألق لا في الشرق الإسلامي فحسب، بل في الأجزاء

الأوربية التي وصلتها الفتوح الإسلامية، في الأندلس وصقلية وغيرها.

وكان النصارى في بلاد آسية الغربية، خارج حدود الجزيرة العربية، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الهجري. ويحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار، وكان النصارى أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج النصارى يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين، وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية تضم مئات النصارى، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا في الدولة، من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود، فقد كان سرجيوس والد القديس يوحنا الدمشقي، خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية، رئيس المجلس الذي كان يتولى حكم دمشق. وكان النصارى في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها(٧٥).

٣ - سلامة بن سليمان بن مرجا النصراني وحريق دمشق:

ذكر المقريزي في كتابه السلوك: "وفي ليلة الثلاثاء سادس عشرة: وقع بدمشق في أول الليل حريق بالدهشة شرقي الجامع الأموي، فعظم الأمر حتى وصل إلى الجامع، وتعلق بالمنارة الشرقية وسقط على الجملون الرصاص. فبادر الناس جميعاً إليه، وأطفئوه بحضرة الأمير تَنْكِز في مدة يومين بلياليها. ثم وقع أيضاً في ليلة السبت أول ذي القعدة: حريق آخر بقيسارية القواسين والكفتيين وسوق الخيل من دمشق، وكان أمراً مهولاً مدة يومين بلياليها. فَعُدِمَ فيها نَحْوُ خمسةٍ وثلاثين ألفَ قوسٍ، وعَدَمَتْ أَموالاً عظيمة، منها للتجار خاصة ما مبلغه ألف وستمائة ألف دينار، وخربت أماكن كثيرة. فبينا الناس في ذلك إذ وجدت ورقة فيها: المملوك الناصح تتضمن أن أمر الحريق يظهر إذا أمسك يعقوب غلام المكين كاتب الجيش، فقبض على المذكور وعوقب، فاعترف على أستاذه عدة من كتاب النصارى،

وأحضروا بين يدي الأمير تنكز، فأقروا جميعاً بذلك. فأوقع تنكز الحوطة على موجودهم، وكتب عليهم محضراً ملخصه: أن الرشيد سلامة بن سليمان بن مرجا النصراني كاتب الأمير علم الدين سنجر البشمقدار أشهد عليه: أنه حضر إليه منتصف شوال المكين يوسف بن مجلي كاتب الأمير بهادر آص، والمكين يوسف عامل الجيش وصحبتهما راهبان أحدهما اسمه ميلاني والآخر اسمه عازر، وقدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية ومعابدها، وقد بايعا نفسيهما على ذلك، وأنهما يعلمان صناعة النفط. فاجتمعوا في بستان المكين يُوسُفُ (يَقُول أَبُو عُمَر: وَهُوَ نصراني)، وأحضر لهم ما يحتاجون إليه من النفط، وعملوا كعكات، وتنكروا في لباسهم، ونزلوا إلى الدهشة وتفرقوا في جوانبها، وابتاعوا منها قماشاً ودفعوا ثمنه لصاحبه، وجعلوا القماش عنده وديعة، وقد دسوا فيه تلك الكعكات المصنوعة، فوقع منها ذلك الحريق، ثم دفعوا إلى الجرائحي النصراني الذي على باب قيسارية القواسين خمسمائة درهم وكعكة من تلك الكعكات، فرمي بها في دكان داخل القيسارية، فكان منها الحريق الثاني، وأن الراهبين المذكورين خرجا بعد ذلك بكتب الجماعة إلى بيروت حتى سيرهم العامل بها في مركب إلى قبرص، وأرّخ المحضر بعشرى ذي القعدة، وحمل إلى السلطان. ثم سمر الجماعة في يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، بعدما عوقبوا عقوبات عظيمة، وعددهم أحد عشر رجلاً: وهم المكين يوسف بن مجلي عامل الجيش وأخوه، والمكين جرجس كاتب الحوطات، والمكين كاتب بهادر آص، وسمعان، وأخوه بشارة، والرشيد سلامة بن سليمان كاتب سنجر البشمقدار، وعامل بيروت، والجرائحي، وجزاران نصرانيان، وشخص يعرف بـ "سبيل الله"، وكان هذا الرجل بالقاهرة سنة خمس وعشرين بزي غريب يلبس جلداً، ويحمل على كتفه زيراً نحاساً أندلسياً، وبيده شربات كذلك، ويقول بلسان غتمي: سبيل الله، ويسقي الناس بغير جعل، فمن الناس من اعتقده (يَقُول أَبُو عُمَر: أيْ: أَنَّهُ مِنْ أولياء الصوفية)، ومنهم من اتهمه بأنه جاسوس، ثم خرج هذا الرجل حاجاً، وقدم دمشق وأقام بها يسقي الماء، حتى دخل مع النصارى فيما قاموا فيه من أمر

الحريق، ولما سمروا وسطوا بعد يومين، ووجد لهم ما ينيف على ألف درهم، أنفق منها في عمارة منارة الجامع والدهشة(٧٦).

٤ - نصر بن هارون النصراني وزير عضد الدولة:

عرف عن خلفاء الدولة الفاطمية ميلهم إلى اليهود والنصارى، فقد استأمنوهم على أخص الأمور وأكثرها حساسية، فاتخذوا منهم وزراء ومقربين، وكان معظم وزراء الدولة العبيدية من غلاة الشيعة أو من اليهود والنصارى، وكان من أشهرهم (يعقوب بن كلس) اليهودي، قال عنه ابن عساكر: كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وحيلة ودهاء، أسلم على مذهب الإسماعيلية طمعاً في الوزارة. ومنهم (عيسى بن نسطورس) النصراني، و (بدر الجمالي) أرمني الأصل. واستوزر البويهيون النصارى في عهد عضد الدولة الحسن بن بويه، فقد كان (نصر بن هارون) وزيراً لعضد الدولة وكان نصرانياً، أذن له عضد الدولة بعمارة البيع والأديرة وأطلق الأموال لفقراء النصارى.

قال ابن الأثير: وفيها جدد عضد الدولة عمارتها ومحاسنها، وجدد المساجد والمشاهد، وأجرى على الفقهاء الأرزاق، على الأئمة من الفقهاء والمحدثين والأطباء والحساب وغيرهم، وأطلق الصلات لأرباب البيوتات والشرف، وألزم أصحاب الأملاك بعمارة بيوتهم ودورهم، ومهد الطرقات، وأطلق المكوس، وأصلح الطريق للحجاج من بغداد إلى مكة، وأرسل الصدقات للمجاورين بالحرمين.. وأذن لوزيره نصر بن هارون -وكان نصرانيا- بعمارة البيع والأديرة، وأطلق الأموال لفقرائهم(٧٧).

٥ - سعيد بن كاتب الفرغاني ومسجد أحمد بن طولون:

هو مهندس قبطي ظهر اسمه في عهد الدولة الطولونية. أول ما نسمعه عنه، أنه تولى عمارة مقياس النيل في جزيرة الروضة سنة ٨٦٤م بأمر من الخليفة العباسي (المتوكل).

١ - لما تولى أحمد بن طولون حكم مصر عهد إليه بأهم منشآته، وهي قناطر أحمد

ابن طولون، وبئر أحمد بن طولون عند بركة حبش لتوصيل الماء إلى مدينة القطائع (عاصمة مصر في عصر الدولة الطولونية) وذلك بين عامي ٨٧٣/٨٧م.

٢- يشهد المقريزى عنه بالآتي: "والذي تولى لأحمد بن طولون بناء هذه العين رجل نصراني حسن الهندسة، حاذق بها، وإنه دخل إلى أحمد بن طولون في عشية من العشايا، فقال له: إذا فرغت من مما تحتاج إليه فأعلمني لنركب إليها فنراها. فقال يركب الأمير إليها في غد فقد فرغت، فتقدم النصراني فرأى موضعاً يحتاج إلى قصرية جير وأربع طوبات، فبادر إلى عمل ذلك. وأقبل أحمد بن طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها. ثم أقبل إلى الموضع الذي فيه قصرية الجير، فوقف بالقصد عليها، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيها فكبا بأحمد. ولسوء ظنه قدر أن ذلك لمكروه أراده به النصراني. فأمر بشق عنه ما عليه من ثياب وضربه خمسمائة سوط، وأمر به إلى المطبق (السجن)، وكان المسكين يتوقع الجائزة بدل ذلك دنانير، فاتفق له السوء" (٧٨).

٤-حينما فكر أحمد بن طولون في بناء جامع يكون أعظم ما بنى من مساجد في مصر و يقيمه على ٣٠٠ عمود من الرخام. يقول المقريزي "فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود، فقيل له: ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس في الأرياف والضياع (الأديرة) فتحمل ذلك، فأنكر ذلك و تعذب بالفكر في قلبه".

٥-سمع أحمد بن طولون أنه لا يجوز بناء جامع بمواد مسروقة، فقال "ما سمعت من يوم وجودي من أن جامعاً بني دون أن تؤخذ أعمدته من كنائس النصارى. أو حيث أنه لا يمكنني إلا مخالفة هذا الأمر (السرقة) فسوف أخالفه وأستغفر ربى عن هذا الذنب إن لم يكن بناء الجامع كافياً للغفران".

٦-لما سمع سعيد بن كاتب الفرغاني بقرار هدم الكنائس للحصول على ٣٠٠ عمود كتب إلى أحمد بن طولون قائلاً "أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودي القبلة". فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه، فقال له " وحيك ما تقول في بناء الجامع. فقال سعيد "أنا أصوره لك حتى يراه عياناً بلا عمد إلا عمودي القبلة".

وصنع له ماكيت من الجلد فأعجب به جداً أحمد بن طولون، وأمر بمائة ألف دينـــار لسعيد بن كاتب الفرغانى لينفق منها على الجامع. وقد استغرق بناءه سنتين.

٧- يشهد جامع أحمد بن طولون بعبقرية نادرة للمهندس سعيد بن كاتب الفرغانى، واستخدم نظرية الحوائط الحاملة الذي لم يكن معروفاً قبل ذلــك، وتـــرى العقــود المدببة قبل أن يعرفها الانجليز بقرنين على الأقل. وقد أمر له أحمد بـــن طولـــون بمكافآة ١٠ آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع.

٨- أخذ أحمد بن طولون المهندس سعيد بن كاتب الفرغانى إلـــى أعلـــى الجـــامع وعرض عليه الإسلام، فأبى القبطى الغيور. فما كان من أحمد بـــن طولـــون إلا أن ألقاه من فوق القصر ومات شهيداً.(٧٩)

٦- الطبيب اليهودي يعقوب باشا(مايسترو لاكوبو) واغتيال الفاتح محمد الفاتح:

بدأ الفاتح إعداد الجيش للقيام بالغزوة السادسة والعشرين لفتح ايطاليا، وذلـــك في سنة ٨٨٦هــ/١٤٨١م وأوشك الجيشُ على التحرك، وكـــان قـــصر الـــسلطان العثماني يموج بالحركة والنشاط في الثلث الأخير من شهر إبريـــل ســـنة ١٤٨١م، الوزراء والقواد يجتمعون بالسلطان محمد الفاتح، ويقدمون له التقارير عـــن وضـــع الجيش وعن أسلحته وفرسانه، وعن ومعداته وحاجاته وأرزاقه. وكان من الواضـــح أن السلطان مُقبل على حملة جديدة، حملة جديدة يقودها بنفسه كما هو دأبـــه علـــى الدوام منذ عشرات السنين. وفي يوم ٢٥ إبريل عام ١٤٨١م اجتاز السلطان مضيق البوسفور مع حاشيته ووصل إلى "اسكدار" في الضفة المقابلة، وضرب سرادقه فـــي موقع بين "مالتبة" و"كبزة" الحاليتين، وهو الموقع الذي أطلق عليه فيمـــا بعـــد اســـم "سلطان جايري"، أي "مرج السلطان".

بدأ السلطان بالاستعداد لحملته الكبيرة، لم يكن السلطان يفصح عن وجهـــة حملته على الإطلاق.. كان تصرفه هذا اتباعًا للسنة النبوية في هذا الأمر، وكان هذا دأبه على الدوام طوال حكمه الذي تجاوز الثلاثين عامًا.. هذا الحكم الطويل الزاخر بالفتوحات الرائعة. ولكن المؤرخين يخمنون أن هذه الحملة -التي لم تتم أبدًا- كانت

موجهة نحو إيطاليا.. لم تتم هذه الحملة؛ لأن السلطان محمد الفاتح شعر في اليوم التالي بمغص شديد في بطنه، مغص شديد ألزمه الفراش وجعله يتلوى من الألم.

كان طبيبه الخاص "يعقوب باشا" بجانبه، واتجهت أنظار الصدر الأعظم والوزراء مصوبة إليه ترجوه مساعدة السلطان بأدويته الناجعة وهو الطبيب المشهور بحذقه، ولكن لم تنفع الأدوية التي سقاها إياه الطبيب، بل ازدادت صحته سوءًا. وأخيرًا وبعد بضعة أيام فقط توفي السلطان محمد الفاتح، وكان عمره تسعا وأربعين سنة وشهرًا وخمسة أيام، أما مدة حكمه فبلغت إحدى وثلاثين سنة وشهرين وثمانية وعشرين يومًا، وكان لا يزال في أوج قوته ونشاطه، فكيف مات إذن فجأة وبهذه السرعة ودون أي مقدمات ومن مغص في بطنه ؟.

تجمعت الشبهات حول طبيبه الخاص "يعقوب باشا". لم يكن هذا الطبيب مسلمًا منذ الولادة، كان من إيطاليا من مدينة البندقية وكان اسمه الأصلي ماسترو لاكوب Maestro Lacop، أشهر إسلامه بعد أن ادعى الاهتداء، واتخذ اسم "يعقوب". وكان طبيبًا حاذقًا؛ لذا سرعان ما ذاعت شهرته في اسطنبول، وقد ادّعى الإسلام تقيّة قبل سنوات عديدة، فاتخذه السلطان محمد الفاتح طبيبًا خاصًا له، وأنعم عليه برتبة الباشوية، رتب "البنادقة" قبل هذه المحاولة أربع عشرة محاولة لاغتيال السلطان محمد الفاتح، ولكن لم يوفقوا والآن سنحت لهم تلك الفرصة الذهبية.

اتصلوا به سرًّا ووعدوه بمكافأة كبيرة جدًّا، وكانت عملية اغتيال السلطان عملية خطرة جدًّا، وكان إغراء المال سببًا مهمًّا، ولكنه لم يكن السبب الوحيد. السبب الآخر المهم هو أن السلطان كان في نظره خطرًا داهمًا على أوربا النصرانية، ألم يفتح مدينة "القسطنطينية" التي كانت مركز النصرانية وعاصمة إمبراطوريتها لمئات السنين ؟، ألم يحول "آيا صوفيا" إلى جامع ؟، ألم يفتح المرفأ الجنوبي "إنز" ؟، ألم يفتح بلاد الصرب وبلاد اليونان وموررا والبوسنة ؟.

لذا لم يتردد طويلاً ووافق على اغتيال السلطان، قرر اغتياله بدس السم له تدريجيًا ليبدو موته طبيعيًّا، فيتخلص من الشبهات ومن القتل، ثم يهرب في فرصة

مناسبة ويقضي بقية حياته في بحبوحة من العيش. وهكذا كان.. فقد بدأ يدس السم له بشكل تدريجي، ولكن ما إن رأى أنه يستعد لحملة جديدة ضد أوربا، حتى زاد من كمية السم الذي قضى على حياة السلطان محمد الفاتح. وما إن انفضح دور هذا الطبيب الذي خان الأمانة، وارتكب هذه الجريمة النكراء ضد شخص أحسن إليه وأغرقه بالهدايا والعطايا، وكان من المفروض أن يحرص على صحته وعلى حياته ولا يغدر به هذا الغدر البشع، ما إن انفضح دوره حتى تناوشته سيوف حرس السلطان فقُتل في الحال. قُتل الطبيب الغادر ولم تسنح له الفرصة للتمتع بالمكافأة.

أما البنادقة فلم يصلهم الخبر إلا بعد ستة عشر ١٦ يومًا، جاء الخبر عن طريق الرسالة التي حملها البريد السياسي لسفارة البندقية في إسطنبول، كانت الرسالة تحتوي على هذه الجملة التاريخية: "لقد مات النسر الكبير La Grand Aqulla e morta" وانتشر الخبر في مدينة البندقية بسرعة، ثم في المدن الأوربية الأخرى، وبدأت الكنائس تدق أجراسها مستبشرة فرحة، لقد مات النسر الكبير، استمرت الكنائس في أوربا تدق أجراسها لمدة ثلاثة أيام بأمر من البابا(٨٠).

تأثير النصارى في الحضارة الإسلامية:

لعب النصارى دورًا مهمًّا في ظل الدولة الإسلامية حيث برزت مساهمة القبائل المسيحية إبان الفتوحات العربية، وفي تثبيت أركان الحكم، وبقيت مجتمعات مسيحية على دينها مثل أقباط مصر، وموارنة لبنان، وتغالبة الجزيرة، وكان مسيحيو الشام من القبائل التغلبية يشكلون سندًا للأمويين في الجيش، وفي الأسطول اعتمدت الدولة الإسلامية على النصارى في إدارة الدولة ودواوينها، فقد كان للمسيحيين العرب دور بارز في العصر الأموي، في إنشاء الدواوين،فاستفاد الأمويون والعباسيون منهم في تعريب الدواوين والإدارة وأبقوهم على رأس وظائفهم؛ وكذلك فعل الفاطميون في مصر، ولم يقتصر الأمر على موظفي الإدارة، بل تعداه إلى الوظائف الكبيرة في الدولة، فقد عمل السريان والنساطرة خلال العصر العباسي في الترجمة والعلوم والفلك والطب فاعتمد عليهم الخلفاء.

كما قاد النصارى النهضة القومية العربية، وقد انتقل بعض هؤلاء المفكرين ذوي الأغلبية المسيحية من سوريا ولبنان إلى القاهرة والإسكندرية التي كانت في ظل الخديوي إسماعيل المكان الأكثر انفتاحًا في الدولة العثمانية.

العصر الأموي:

شغل النصارى في العصر الأموي وظائف هامة، فكان منهم الأطباء والوزراء والشعراء، فقد عين معاوية الطبيب ابن أثال عاملاً على ولاية حمص، وكان منصور بن سرجون وزيراً، وكان طبيبه الخاص عربياً مسيحياً، كما وتقلد بعض النصارى الوزارة كسعيد بن ثابت، وكان شاعر البلاط في عهده الأخطل، الذي كان ثالث أشهر شعراء «النقائض» مع جرير والفرزدق. وكان منهم أيضاً حرفيون مهرة، شارك عدد غير قليل منهم في بناء الجامع الأموي الكبير، الذي أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك ببنائه، وعين سليمان بن عبد الملك كاتباً نصرانياً، كما عين المأمون العباسي اسطفان بن يعقوب مديراً لخزينة الخليفة، وتم تقليد ديوان الجيش لمسيحيٍّ مرتين، وشغل سعيد بن ثابت وزارة، وتولى عبيد بن فضل قيادة الجيش، وكان عيسى بن نسطور وزيراً في بلاط العزيز الخليفة الفاطمي، وكان لعضد الدولة وزير نصراني اسمه نصر بن هارون، وكُلِّفَ مسيحيون كثيرون بمسؤوليات حكومية أيام الدولة الفاطمية.

العصر العباسي:

النسخة الأصلية من كتاب: نعت الحيوان ومنافعه لابن بختيشوع، تعود للقرن العاشر الميلادي. وقد كان للمسيحيين خاصّة السريان من يعاقبة ونساطرة دور مهم في الترجمة والعلوم، بخاصة أيام الدولة العباسية، وأدت الترجمة مهمة رئيسة في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وقد أتقن العرب، والنصارى منهم خاصة، الترجمة واستوعبوا محتويات الكتب المترجمة، بعدما عربوها وأعادوا صياغتها وطوروا مضمونها وأجروا عمليات نقد عليها وأعادوا إنتاج الثقافات السابقة لهم ووضعوها بين يدي العالم في ما بعد. لقد ترجم النصارى من اليونانية والسريانية

والفارسية، واستفادوا من المدارس التي ازدهرت فيها العلوم قبل قيام الدولة العربية خصوصاً مدارس مدن "الرها ونصيبين وجند يسابور وإنطاكية والإسكندرية" المسيحية والتي خرجت هناك فلاسفة وأطبّاء وعلماء ومشرّعين ومؤرّخين وفلكيّين، وحوت مستشفى ومختبرًا ودار ترجمةٍ ومكتبةً ومرصد. واشتهر من المترجمين شمعون الراهب وجورجيوس أسقف حوران وجوارجيوس وجبريل بن بختيشوع الذين اشتهروا في الطب خصوصاً، وبقيت أسرتهم آل بختيشوع مسئولة عن الطب في الدولة العباسية طوال ثلاثة قرون، وخدم أبناؤها كأطباء خاصّين للخلفاء العباسيين، وعيّن المأمون يوحنا بن ماسويه الذي ترجم وألف خمسين كتاباً رئيساً لبيت الحكمة وكان أبوه أيضًا طبيبًا، وحنين بن إسحاق كان أيضاً رئيساً لبيت الحكمة ومن بعده ابن أخته حبيش بن الأعسم، وقد ترجم حنين بن إسحاق خمسة وتسعين كتابًا، وسعيد بن البطريق وله عدد من المصنفات، وقسطا بن لوقا. وقد أقام المأمون يوحنا بن البطريق الترجمان أميناً على ترجمة الكتب الفلسفيّة من اليونانيّة والسريانيّة إلى العربيّة، وتولّى كتب أرسطو وأبقراط. ومنهم أيضًا إسحاق الدمشقي ويحيى بن يونس والحجاج بن مطر وعيسى بن يحيى ويحيى بن عدي وعبد المسيح الكندي، وقد ترجموا وألفوا في الفلسفة والنواميس والتوحيد والطبيعيات والإلهيات والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم والموسيقى وغيرها. يشير عدد من الباحثين بنوع خاص إلى تطور الفيزياء في اللغة السريانية، وكان لترجمتهم كتب الفلسفة إلى العربية أثر كبير في ظهور «فرق المعتزلة» التي تجعل من العقل الحكم الوحيد في تفسير أحكام الشريعة الإسلامية.

وأسهم النصارى بدورهم في التطور العلمي، فهم الذين قاموا بالدور الأساسي في بناء الأسطول العربي في بداية العصر الأموي، وهم الذين أقاموا دار الصناعة في الإسكندرية، ودار الصناعة في تونس، وذهب عدد من العمال الفنيين النصارى إلى الشام للهدف نفسه.

وقد وصف الجاحظ وضع النصارى خلال العصر العباسي:إن النصارى

متكلمين وأطباء ومنجمين وعندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء، وان منهم كتّاب السلاطين وفرّاشي الملوك وأطباء الأشراف والعطّارين والصيارفة، وأنهم اتخذوا البراذين والخيل واتخذوا الشاكرية والخدم والمستخدمين وامتنع كثير من كبرائهم من عطاء الجزية.

العصر العثماني:

لعب النصارى العرب دورًا رائدًا في نهضة الثقافية العربية، فكانوا أول من أدخل الطباعة ببلدان العرب بمطبعة دير قزحيا بلبنان، ثم مطبعة حلب عام ١٧٠٦، وساعدوا منذ منتصف القرن التاسع عشر على نشر التعليم وتأسيس المدارس، فافتتحت الجامعات المسيحية بجهود المرسلين، كان أولها الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٨٦٦ وجامعة القديس يوسف عام ١٨٧٥ مما أدى إلى انتعاش الحركة الفكرية، وخرِّجت المدارس المسيحية عددًا من أعلام العربية في تلك المرحلة، وأسهم النصارى في إحياء التراث والأدب العربي، ومن أبرز أعلام الأدب جبران خليل وميخائيل نعيمة ومي زيادة وأمين الريحاني وشفيق معلوف وإلياس فرحات، ومن الشعراء والمؤرخين برز إيليا أبو ماضي وخليل مطران والأخطل الصغير ونعمة الله الحاج وعيسى إسكندر وصليبا الدويهي ورشيد الخوري.

تركيا: كان النصارى خاصّة الأرمن واليونانيين عماد النخبة المثقفة والثرية في عهد الدولة العثمانية، وكانوا أكثر الجماعات الدينية تعليمًا، ولعبوا أدوارًا في تطوير العلم والتعليم واللغة والحياة الثقافية والاقتصادية.

ظهر في القرن الثامن عشر نفوذ يونان الفنار في الدولة العثمانية. وهم أبناء عائلات يونانية أرستقراطية أقامت بحي الفنار في إسطنبول، وهو مركز بطريركية القسطنطينية المسكونية، وكان لهذه العائلات نفوذ سياسي داخل الدولة العثمانية ونفوذ ديني في تعيين البطريرك، الزعيم المسيحي في الدولة العثمانية. كانت عائلات حي الفنار عائلات يونانية فارتبطت بالحضارة الهيلنستية والحضارة الغربية فشكلت الطبقة المتعلمة والمثقفة في الدولة العثمانية، مما أفسح لها نفوذًا سياسيًّا

وثقافيًّا. اشتغل أفراد هذه العائلات في التجارة والصيرفة وفي السياسة والتعليم، وينتمي غالبيتهم إلى عائلات من أصول النبلاء البيزنطيين[٨١]

الخاتمة:

يظهر من خلال البحث سماحة الإسلام والمسلمين في التعاون مع غير المسلمين، وإقرارهم على دينهم وعقيدتهم، والارتباط معهم بعهد وعقد منسوب إلى الله والرسول، لأهميته والحرص على تطبيقه والحفاظ عليه، وأن الواقع العملي في رعاية غير المسلمين في الدولة والمجتمع الإسلامي كان يتفق -أو يفوق- الجانب النظري، ولذا تم التعايش بين المسلمين وغيرهم طوال الحقبة التاريخية السابقة، وحافظ غير المسلمين على وجودهم وكيانهم ودينهم حتى الوقت الحاضر، مع قيام الارتباط الوثيق بينهم وبين المسلمين في جوانب الحياة، دون تدخل في العقيدة والمسائل الدينية البحتة، التزاماً بقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾. كما أثبت التاريخ أن غير المسلمين تبوءوا مناصب عالية ومراكز مرموقة، وأنهم كانوا في قصور الخلفاء، وأن الحكام والأمراء استعانوا بهم، وأسندوا إليهم الوظائف، ولمع منهم عدد كبير، وهو ما لاحظه المستشرق آدم متز، فقال: "من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية"، وهذا ما أتاح لهم إبداء الرأي، وتقديم المشورة والخبرة في مختلف القضايا باستثناء الأمور الدينية، وهكذا نعم غير المسلمين بالإقامة بجوار المسلمين، متمتعين بالحقوق الكاملة، والكرامة والعيش الرغيد تحت مظلة الشريعة الإسلامية.

لذلك نختم البحث بتوصية متواضعة، وهي أن الالتزام بشريعة الله تعالى هي الضمان الرئيسي لحفظ الحقوق لكل فئات المجتمع، دون أن نفسح المجال لدخيل فكري، أو تشريع مستورد، يمزق كيان الأمة، ويثير النعرات بينها، ويوقد الطائفية بين أبنائها، ويجب أن نحرص على التقيد بالشريعة الغراء، وندعو إلى تطبيقها، وتقنين أحكامها، ليسود العدل والإخاء في ربوع البلاد.

هوامش البحث:

(١) تفسير الطبري للإمام محمد بن جرير الطبري ١٤٥/٧.
(٢) الموسوعة الفقهية ١٢١/٧-١٢٢.
(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم ٨٧/١-٩٠.
(٤) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير رقم ٣٢٦١.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام. ج٣ ص١١٤.
(٦) جامع البيان في تأويل آي القرءان. لابن جرير الطبري. ج٣ ص293 .
(٧) ابن سعد في كتاب "الطبقات الكبرى الجزء الأول صفحة ٣٥٧ والسيرة النبوية لابن هــشام، والروض الأنف للسهيلي، كما ذكره ابن سيد الناس في كتابه "عيون الأثر، ابن كثير :السيرة النبوية ١٠٦/٤، والبداية والنهاية ٥٥/٥، وابن القيم: زاد المعاد٥٤٩/٣
(٨) الكنيسة القبطية تحت حكم الدولة الفاطمية (٩٦٩ــ١١٧١) الأب أنطون فؤاد ص١٢، أنساب الأشراف (٦٥/٤، ٦٧)، خلافة معاوية ص٧٥ .
(٩) فتوح مصر ص١٣٢، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للقرضاوي ص٢٠-٢١.
(١٠) النظم الإسلامية. بنيامين التيطلي ص١٧٢ .
(١١) قصة الحضارة. ول ديورانت ج٣ ص٤٢.
(١٢) صبح الأعشى ج٥ ص٣١٤، وخطط المقريزي.ج١ ص٢٦٢، الإدارة. لمحمد كرد ص٧٨.
(١٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم ميتز ٧٦/١.
(١٤) حسن علي حسن: أهل الذمة، ص١٣١.
(١٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم متز: الحضارة الإسلامية ٧٤/١، ٩٠
(١٦) ولا يراد من ذلك بقية الأعمال من تجارة وزراعة، وقد حفظت لنا كتب التاريخ أسماء كثير من أطباء أهل الذمة الذين كانوا يعملون عند الولاة والأمراء والخلفاء على مدار التاريخ كله، أهل الذمة والولايات السياسية لمحمد شاكر الشريف مقالة على موقع صيد الفوائد.
(١٧) منهاج الإسلام في الحكم. محمد أسد ص ٨٣-٨٤.
(١٨) يحفظون سره ولا يخفون عنه شيئا.
(١٩) أخرجه البخاري كتاب الجهاد رقم ٣٠٥٢.
(٢٠) انظر الخراج لأبي يوسف ص١٢٦.
(٢١) السلوك لمعرفة دول الملوك لابن الأزرق ج١ىص٢٤٥.
(٢٢) تفسير ابن جرير الطبري: ٣٩٨/١٠.
(٢٣) تفسير ابن أبي حاتم سورة المائدة آية رقم ٥١ أثر رقم ٦٥٤٦.
(٢٤) أحكام القرآن للجصاص تفسير سورة التوبة آية رقم ٢٩.
(٢٥) أحكام القرآن لابن العربي سورة المائدة آية ٥١.
(٢٦) تفسير ابن كثير: ١٣٢/٣.

(٢٧) مفاتيح الغيب تفسير الفخر الرازي سورة المائدة آية رقم ٥١.
(٢٨) مدارك التنزيل للنسفي سورة المائدة آية رقم ٥١.
(٢٩) تفسير ابن كثير ٣٠/٢.
(٣٠) البحر المحيط لأبي حيان سورة النساء آية رقم١٤٤
(٣١) تفسير ابن كثير سورة المائدة آية رقم ٥٢.
(٣٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج١٢ ص٢٢٩.
(٣٣) فتح الباري لابن حجر ١٣٢/١٣.
(٣٤) بدائع السلك في طبائع الملك، والرواية الثانية ذكرها ابن القيم في أحكام أهل الذمة ٤٥٩/١ وذكر أن الذمي كان اسمه حسان بن زيد، وكان من فضل اتباع الشريعة في ذلك أن أسلم هذا النصراني وصار من عباد الله الموحدين.
(٣٥) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ص ٣٢.
(٣٦) فتح الباري لابن حجر ٢٠١/١٣-٢٠٢.
(٣٧) تفسير ابن جرير الطبري ١٣٨/٧.
(٣٨) تفسير ابن جرير ١٤٦/٧.
(٣٩) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٢٧/١٠.
(٤٠) تفسير القرطبي تفسير سورة آل عمران رقم ١١٨.
(٤١) زاد المسير في علم التفسير سورة آل عمران آية رقم ١١٨.
(٤٢) تفسير ابن كثير ١٠٧/٢.
(٤٣) المراد بالتولية هنا توليتهم الولايات.
(٤٤) والمراد بها اتخاذهم أولياء.
(٤٥) أحكام أهل الذمة ٤٩٩/١.
(٤٦) تفسير ابن كثير ٣٥٤/٤.
(٤٧) تفسير القرطبي ١٠٨/٩.
(٤٨) الأحكام السلطانية ص٢٨-٢٩.
(٤٩) انظر أحكام أهل الذمة لابن القيم ٤٥٦/١-٤٧٨، تحطيم الصنم العلماني ص١٠٨-١١٠.
(٥٠) غياث الأمم في التياث الظلم ص ١١٤-١١٦.
(٥١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة رقم ٣٢٣.
(٥٢) أخرجه النسائي كتاب تحريم الدم رقم ٣٩٦٧، وأخرجه أحمد بنحوه رقم ١٢٦٤٣.
(٥٣) أبو داود كتاب الجهاد رقم٢٦٤١.
(٥٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم ميتز ج١ ص١٠٥.
(٥٥) حسن المحاضرة للسيوطي ج٢ ص١١٧، الحضارة الإسلامية لآدم ميتز ج١ ص١١٨.
(٥٦) حاشية ابن عابدين ج٣ ص٣٧٩.
(٥٧) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د. يوسف القرضاوي ص٦٥.

(٥٨) تفسير ابن جرير الطبري ١٤٥/٧-١٤٧.
(٥٩) أحكام أهل الذمة ٤٩٨/١.
(٦٠) إتحاف الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء للمقريزي ص٢١٢.
(٦١) إشارة منه إلى الوزير اليهودي.
(٦٢) تاريخ الأدب الأندلس. إحسان عباس ١٤٨/١.
(٦٣) الإحاطة في أخبار غرناطة ص١٥٢.
(٦٤) السلوك لمعرفة دول الملوك. ص٢٥٣.
(٦٥) انظر في تفاصيل ذلك السلوك لمعرفة دول الملوك. ص٢٦٥
(٦٦) الإشارة إلى من نال الوزارة ابن منجب ص٢٤١ (المعهد العربي الفرنسي، القاهرة ١٩٢٣)
(٦٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ابن أبي أصيبعة ص١٨١.
(٦٨) قصة الحضارة ول ديورانت ٤٥٦/٥، عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعه ص٢٥١.
(٦٩) قصة الحضارة ول ديورانت ٤٥٦/٥، عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعه ص٢٥١.
(٧٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعه ص٢٥٢.
(٧١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة ص٢٥٧، والقانون لابن سينا ٢٦٩/٦.
(٧٢) خطط المقريزي ج١ ص٤٩٤، الكنيسة القبطية تحت حكم الدولة الفاطمية. أنطـون فـؤاد ص١٤٢.
(٧٣) القديس يوحنا الدمشقي، تاريخ الأقباط، ٧ تشرين ثاني ٢٠١٠، صفحة كتاب منـصور بـن سرجون المعروف باسم القديس يوحنا الدمشقي، نيل وفرات، ٨ تشرين الثاني ٢٠١٠.
(74) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي د/عبد الشافي محمد عبد اللطيف ص٤٢٤ ط/دار السلام، والمستشار محمد عزت إسماعيل الطهطاوي- التبشير والاستشراق أحقاد وحملات ص ٣٦ من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٣٧٧ هـ/١٩٧٧ م .
(75) المستشرقون والتاريخ الإسلامي د. علي الخربوطلي ص٣٧، وكتاب «حـضارة العـرب» لجوستاف لوبون ص ٥٦٦، دكتور علي عبد الوهاب، بين الإسلام والغرب، ضراوة أحقـاد ومرارة حصاد ص٢٢٠، ٢٢١، دار ركابي القاهرة ١٩٩٦م، قصة الحضارة ١٣٢/١٣.
(٧٦) السلوك إِلَى دولة الملوك لتقي الدين أَبِي العباس أَحْمَدُ بن عَلِيٍّ المقريزي.(٢٨٢/٣).
(٧٧) البداية والنهائية لابن كثير ٣٣٥/١١.
(٧٨) المقريزي ج٤ ص ٣٣٨.
(٧٩) وطنية الكنيسة القبطية و تاريخها- الراهب القمص أنطونيوس الأنطونى ص٢١.
(٨٠) هل اغتيل السلطان محمد الفاتح على يد طبيبه اليهودي. أورخان محمد علي ص٢.
(٨١) دور المسيحيين العرب في النهضة العربية ص١٢٢.